طه شاهين
فطيرة الموت
زايلا
رواية

رواية قصيرة

فطيرة الموت

زاريلا

طه شاهين

الكتاب: فطيرة الموت زاريلا

النوع: رواية قصيرة

الكاتب: طه شاهين

الغلاف: المؤلف

الطبعة الإلكترونية: ديسمبر سنة 2023

البلد: الجزائر

Email : shahintah@hotmail.com

Facebook:
https://www.facebook.com/profile.php?id=61554447867799

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء إلى

كل عمال النظافة

الذين يسهرون على نظافة المحيط

□" أنا لا أريد أن أكون جزءا من هذا العالم."

□كل ما أريد هو أن أصنع عالمي الخاص."

□" ليس من السهل الوصول للقمة، ولكن من السهل التدحرج منها."

□" ليس عيبا أن تتعلم من غيرك، ولكن العيب أن تنسب العلم لنفسك."

□" التقليد مقبرة الإبداع فلا تقلد وكن مبدعا."

المؤلف

كل تشابه في الواقع□

مع أسماء الشخصيات
الرواية من وحي خيال
الكاتب□

ولا علاقة لها بالواقع

1

تخيل نفسك تستيقظ ذات يوم وتجد أن العالم دون أطباء! يا ترى كيف سيكون حال المرضى؟، أبعد من ذلك افترض جدلا أن النيران اشتعلت في إحدى الغابات والجبال ولا وجود لما يعرف برجال الإطفاء! كيف سيكون مصير النباتات والحيوانات؟، وأزيدك من البيت شعرا ماذا لو كان العالم يعج بالمخلفات البشرية والرائحة هنا وهناك وانهالت علينا الحشرات مثل الذباب والبعوض!، هنا تتساءل أين هم عمال النظافة؟

لذا قد تكون هذه هي السعادة الحقيقية لوجود هؤلاء، كما قد نتساءل في قرارات أنفسنا دائماً: ما المقصود بالسعادة يا ترى؟، ونبحث عن معناها وما السبيل لتحقيقها. وفي هذا الصدد يتجه البعض بالقول: "على أنها عبارة عن تحقيق للأهداف"، بينما البعض الآخر يراها: "أبعد من ذلك"، لذا في رأيي "السعادة مصطلح مرن يختلف من شخص إلى آخر ولكن ! تتفق في طريق واحد وهو: كيفية الوصول إليها فهي تُجلب ولا تعطى."

***

تشير الساعة إلى الخامسة صباحاً كل من "جابر" وأهله يغطون في نوم عميق وفي هذه اللحظات يرن صوت المنبه كعادته الصادر من الهاتف الخلوي، يحاول جابر أن يوقفه بيده ويتحسس مكانه، ما زال مستلقياً مغمض العينين على فراشه (البالِ).

بعدها يستسلم للنوم وفي هذه الأثناء يطرق ذلك الصوت أُذنا زوجته "سميرة" وتستيقظ أول وهلة نظرت إلى جانبها، وتلاحظ أن "جابراً" يغط في نوم عميق ترفع يدها وتهزه، "جابر" استيقظ المنبه يرن منذ مدة، ويرد: حسنا حسنا وفي تلك اللحظة يحاول "جابر" النهوض، وفي الأخير يقاوم وينهض.

حمل ذلك الهاتف الخلوي وأوقف صوت المنبه، ولاحظ أن الساعة تشير إلى الخامسة والربع صباحاً تأخر عن النهوض ربع ساعة، أسرع إلى المكان الذي توجد فيه الملابس بعدها غير ملابسه المعتادة ذات اللون الأخضر الباهت وغادر المكان مسرعاً قبل أن يرتشف كوب من القهوة التي اعتادها كل صباح.

***

قبل مغادرته وكعادته كان يشق على غرفة ابنتيه الصغيرتين ويغادر بعدها إلى عمله، خرج "جابر" مرتديا بذلة العمل المتكونة من "سترة وقميص وبنطال وحذاء وقبعة وقفازين ذات اللون البرتقالي" وكان يتخلل اللون الأخضر- لونا آخر وهو اللون الأصفر الباهت، وقبل أن يرتدي قفازيه أدخل "جابر" إحدى يديه وكانت اليمنى في سترته ليستخرج بعض السجائر وكان عودا من التبغ، ثم استخرجه ووضعه بين شفتيه ووضع اليد الأخرى ليستخرج "االقداحة" لم يجدها وبدأ يتحسس البنطال والسترة فلم يجد شيئاً، حينئذ تساءل في نفسه: آه ربما نسيتها في البيت، بعد ذلك رجع إلى بيته، لاحظته زوجته عائداً إلى البيت في ذلك الوقت فقالت:

- خير إن شاء الله يا رجل ما أرجعك الآن؟

فرد عليها:

- القداحة نسيت قداحتي.

بعدها تنهدت زوجته وزجرته قائلة:

- ألا تتوقف عند هذه العادة السيئة ستقتلك ذات يوم ألم تخبرني بأنك أبطلتها آخ من عادتك آخ.

***

وكانت تحدث "سميرة" نفسها وتعاتب حالها على هذا الزوج الذي تزوجت به فلم ترى من يوم زواجها إلا الفقر معه، بعدها لاحظ زوجها أنها شاردة الذهن وحاول أن يعرف فيما تفكر، لكن كان ردها لا شيء، وسعى لإجاد قداحته ولم يسعفه الحظ بذلك، وفي تلك الأثناء يرن جواله، وينظر في الجوال ليجد أن السائق يناديه خرج من البيت ورد على تلك المكالمة، "أهلا "سعيد" صباح الخير"، ورد عليه "سعيد السائق" بنبرة تدل على الغضب، وفي تلك اللحظات يسمع "جابر" صوت محرك أدرك أن "سعيد" داخل الشاحنة.

- أين أنت لما كل هذا التأخير ألا تغير هذه العادة! نحن في انتظارك لا تتأخر وإلا غادرنا، قاطعه بعدها "جابر":
- حسنا حسنا أنا في طريقي إليك، مسافة الطريق وسأكون عندك.

حاول "جابر" مضاعفة وتيرة مشيه، وألقى بتلك "السيجارة" لكي لا تعيقه ورماها على الطريق وفي تلك الوهلة انتبه لنفسه وعاد راجعاً أدراجه وحمل تلك "السيجارة" ووضعها في جيبه، لم يجد أي مكان مخصص لرمي "القمامة" آنذاك مما استدعاه الأمر لوضعها داخل جيبه.

***

بعـــدها أكمـــل طريقـــه وحـــدث نفســـه:"زبال" يكـــنس الطرقـــات وينظـــف مخلفـــات النـــاس يـــرمي مخلفاتـــه في الطريق "أخس مني أخس".

وهـــو كـــذلك حـــتى وصـــل لمكـــان عملـــه وركـــب خلـــف الشـــاحنة رفقـــة صـــديقه "أدهـــم" وانطلقـــت تلـــك الشـــاحنة تجـــوب شـــوارع المدينـــة مـــن أجـــل جمـــع مخلفـــات النـــاس توقفـــت الشـــاحنة ونـــزل منهـــا "جـــابر" "وأدهـــم"، وفي تلـــك الأثناء يحدث أدهم جابر:

- مـــا الـــذي أخـــرك اليـــوم؟ لقـــد انتظرنـــا قرابـــة نصـــف ســـاعة، أنـــت تـــدري أن وقتنـــا محســـوم، وفي تلـــك الأثنـــاء كـــان أدهـــم يشرـع في ارتـــداء قفازيـــه ويكلمـــه في الوقت نفسه.
- أنـــا آســـف لـــن أعيـــدها اســـتيقظت متـــأخراً وأنـــا في طـــريقي أردت أن أدخـــن ســـيجارة، ولـــم تكـــن مـــعي قـــداحتي لـــذا رجعـــت إلى البيـــت ولـــم أجـــدها ممـــا اضـــطرني الحـــال إلى أخـــذ قداحـــة زوجـــتي الـــتي تســـتعملها بـــالمطبخ، كـــل هـــذا مـــن أجـــل ســـيجارة وفي الأخير رميتها وها هي الآن في جيبي.

بعـــدها أخرجهـــا ورماهـــا في مـــؤخرة الشـــاحنة أيـــن توجـــد آلـــة طحـــن النفايـــات، ثـــم شرع في حمـــل أكيـــاس القمامـــة الـــتي توجد على الطرقات.

***

وفي المقابل وبعد مرور قرابة الساعتين كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة والنصف صباحا أعدت "سميرة" لابنتيها فطور الصباح والذي كان عبارة عن بيض مسلوق مع بعض الخبز، وفي تلك الأثناء كانتا كل من "ربا ومها" قد استيقظتا وشرعا يحضران أنفسيهما للذهاب إلى المدرسة كالعادة، نادتهما أمهما على أن الفطور جاهز أقبلا على الجلوس في تلك الطاولة الصغيرة والكراسي الرخيصة الثمن، سألت "ربا" أمها:

- ما هذا يا أمي؟
- كما ترين بيض مسلوق.
- أعلم أنه بيض مسلوق كرهت هذا البيض ألا يوجد غيره!

في تلك الأثناء حزنت الأم وحاولت أن تهدأ إحدى ابنتيها، وشرحت لهما بأن البيض المسلوق صحي وغني بالبروتينات، لذا لا بد من تناوله كل صباح لكي تصبحا قويتين، وهكذا ... حتى اقتنعت "ربا" وأختها، ثم غيرت "سميرة" لباس ابنتيها المدرسي، وخرجت بصحبتهما لكي توصلهما للمدرسة التي كانت بعيدة نوعا ما عن البيت وهذا ما كان، ففي الأخير كانت سميرة ربة بيت في كل صباح تقوم بإيصال "مها و ربا" بعدها تعود إلى اكمال شغل المنزل وكان "جابر" بعد انتهائه من عمله يعود بصحبة ابنتيه، وهو ما يجري عليه الأمر دائما.

***

كانت "مها وربا" تلميذتين مجتهدتين ويتحصلا على الدراجات الأولى في القسم وبالرغم من الفقر الذي تعانيانه لم يمنع ذلك من تفوقهما الدراسي، كما كانتا تدرسان في الفصل الثالث من الطور الابتدائي، وفي إحدى المرات وبينما هما في القسم رن جرس المدرسة من أجل أخذ استراحة قليلة، خرجت كل من "مها وربا" إلى فناء المدرسة وجلسا هناك.

وكانت تدرس معهما فتاة ميسورة الحال وتحمل الحقد والكراهية لهما لأن المعلمة دائما ما تمدحهما وهذا ما جعل تلك الطفلة لا تطيقهما، إضافة إلى لباسهما الرث، ومن خلال تلك الاستراحة اجتمعت تلك الطفلة مع مجموعة من التلميذات الأخريات وشكلن دائرة ووضعن فيها الشقيقتين وبدأت تلك الطفلة تغني وتصفق بيديها ويخرج من فيها تلك العبارات: "مين الزبال مين مين" وأجابها بقية البنات: "أنا هنا أنا في الحال".

كما أشرن بأصابعهن على "ربا ومها"، وكل من "مها وربا" تنظران إلى الموقف الحاصل لهما والمحرج لم تتمالك "مها" نفسها ووضعت يديها على أذنيها لتحجب صوت البنات عنها وطأطأت رأسها نحو الأسفل والدموع تنهمر من عينيها.

***

في تلك الوهلة كانت "ربا" أشجع أمسكت يد شقيقتها وقامت وحاولت أن تشق تلك الدائرة المتكونة من الفتيات لكن منعنها عن ذلك، صرخت "ربا".

وأخذت تشد شعر إحداهن وتجرها إليها وتصرخ عليها من شدة الحزن: "حقيرة حقيرة" وفي تلك اللحظة انتبهت المعلمة للأمر وأسرعت لتفك النزاع، بعدها فرقت الأطفال ونهرت كل من "ربا" وتلك الفتاة وحاولت أن تعرف سبب تلك المناوشة وأخبرتها "ربا" على أن الفتيات كانت تعيرنها بأبيها وهذا ما أغضبها وحاولت أن تذهب من هناك، لكن البنات منعنها مما اضطرت لضرب تلك الفتاة.

بعد تلك الحادثة استدعى المدير أولياء التلاميذ ونبههم على عدم إعادة مثل هذه الأفعال وإلا اضطر الأمر لمعاقبة التلاميذ بالطرد من المدرسة أو تحويلهم إلى مدرسة أخرى، كما نوه المدرسون كذلك وحاول أحد أولياء التلاميذ أن يلعب بعقل المدير ويطرد كل من "مها وربا"، لكن المدير قابله بالرفض وأخبره أن الأمر لا يستدعي ذلك.

***

ونتيجة لذلك أراد جابر معرفة سبب تلك المناوشة، فتبين له من ابنتيه أن وظيفته هي السبب، حيث كانت التلميذات يعيرن به بناته وهذا ما حمل على إحدى ابنتيه فعل ما فعلت يومئذ، كما أحزنه ذلك كثيرا خصوصا بعد تلك المضايقات التي أصبح بناته يتعرضن لها، راح يفكر في نفسه: "لو لم أتوقف عن دراستي لما حدث كل هذا"، ثم يجاوب نفسه مرة أخرى: "لا ينفع الندم الآن، لا بد لي من تحسين ظروف معيشة أهلي"، "كما لا أريد أن أسير في طريق مسدود."

كما اشتكت له زوجته على ندرة الطعام في البيت، وعلى الأخص البنات كرهن الأكل نفسه في الصباح، لكن هذا ما أغضب جابر، حيث كان يعتقد أن زوجته تعلم حقيقة راتبه القليل ولابد لها أن تتكيف مع الموضوع، وتصرف هذه الأفكار عن البنات فهو يتعب ليجني تلك اللقمة، كما وعدها على البحث عن عملا آخر إن حالفه الحظ وربما تتحسن معيشتهم.

***

وفي اليـوم المـوالي قصـد "جـابر" بعـد أن انـتهى مـن عملـه وكانـت فـترة عمـل "جـابر" مـن "الخامسـة صـباحا إلى غايـة منتصـف النهـار"، يعـني: كـان يحـاول أن يجـد عمـلا آخـر يعيـل بـه نفسـه وأهلـه في الوقـت المتـبقي لـه شرط أن يكـون ذلـك بعـد وقـت الظهـيرة، لـكي يسـتريح "سـاعة زمـان"، وهـذا مـا كـان حيـث وجـد عمـلا في أحـد المسـتودعات وكانـت طبيعـة الشـغل: تحميـل البضـائع مـن مكـان صـنعها إلى مكـان تخزينهـا، مقابـل أجـر زهيـد لليـوم الواحـد، ولـم يجـد إلا ذلـك العمـل وكـان كـل همـه تحسين معيشة أهله ولو قليلا.

***

2

وهكـذا توالـت الأيـام عـلى "جـابر"، وفي يـوم عودتـه مـن العمـل اتجـه صـوب المدرسـة كالعـادة لأخـذ ابنتيـه مـن هنـاك، ولحظـة وصـوله لاحـظ أن "مهـا" كانـت حزينـة والـدموع بـين عينيهـا، ثـم نـزل "جـابر" ليحـدثها وخاطبهـا قائلا:

- مـا بهـا ابنـتي الحلـوة "مهـا" هـل أزعجهـا شيء اليـوم؟ وهـو (يـداعب خصـلات شـعرها الجميـل)، وفي تلـك اللحظـة انفجـرت بالبكـاء وألقـت نفسـها عـلى أبيهـا وحظنتـه، هنـاك استشـعر جـابر عـلى وجـود خطـب بإحـدى ابنتيـه بعـدها رفـع رأسـه ونظر إلى "ربا" وخاطبها:
- مـا الـذي جـرى لأختـك لمـا هي بهـذه الحالـة؟ وكـان "جابر" تعلو ملامحه الجدية والغضب.
- أضربها أحداً؟ ، وخاطبته "ربا":

***

- لا يـا أبي إنمـا كـل مـا في الأمـر بعـض البنـات في القسـم لاحظـوا شـيئاً في شـعر أخـتي وزعمـن عـلى أنـه (القمـل)، وعـيرن بـه أخـتي وأنـا، ومنـذ ذلـك الوقـت وهي حزينـة حيـث ابتعـدت عنـا بـاقي البنـات وأمرتنـا المعلمـة بعـد أن علمـت ذلـك بزيـارة الطبيـب، وفي تلـك الأثنـاء قـام "جـابر" مـن مقامـه وغـادر مسرـعا ناحيـة المعلمـة ليسـألها عـن الأمر.
- أهلا أريد أن أسألك أمرا
- تفضل
- أحقـا مـا تدعيـه "ربـا ومهـا" أن في شـعرهن قمـلا؟ أم هي مجـرد لعبـة اخترعنهـا البنـات مـن أجـل مضايقة بناتي؟
- في الحقيقـة يـا سـيدي تـم فحـص ابنتيـك مـن قـبلي وتبـين أنهمـا حقـا يعنيـان منـه وإن لـم تصـدقيني يوجـد الطبيـب خـذهما إليـه ليـتم الكشـف عنهمـا، ومـن المستحسـن فعـل ذلـك، لأنـني مضـطرة عـلى إبقائهمـا في البيـت مـدة مؤقتـة لـكي لا ينتقـل إلى باقي التلاميذ.

***

- حسنا حسنا سأرى ذلك، ولكن دراستهما ... إن صدق قولك وتبين ذلك ماذا سيحدث لهما؟
- لا تقلق تحدثت مع المدير وسيتم احتساب فقط الفصول التي درسناها فقط لا تقلق ابنتيك مجتهدين ولا يخاف عليهما، ولكن صحتهما أبدل وأولى.
- شكرا على كل حال سآخذهما حالا للطبيب مع السلامة.

وفي تلك الأثناء أخذ جابر ابنتيه إلى مستشفى عام، وعند وصوله وجد طابوراً كبيراً من المرضى ينتظرون دورهم، ومرت عليه ممرضة سألها عن دوره ذهبت لتنظر في أحد الأوراق ثم رجعت وأعطته ورقة مكتوبة عليها رقم 50 ، وكان جالسا على أحد الكراسي و"ربا" جالسة على فخذه الأيمن و"مها" على فخذه الأيسر، فخاطبها ولوح بيده:

- ما هذا؟
- هذه ورقم تحمل الرقم 50
- أدري إنها ورقة فأنا لست أعمى.
- ما دمت كذلك إذن لما السؤال؟ هذا رقم دورك في الصف كما ترى هناك العديد من المرضى أتوا قبلك وهم ينتظرون دورهم.

***

بعـدها انصرـفت وتركتـه، لـم يتمالـك "جـابر" في ذلـك الموقـف أعصـابه وحـاول أن يـتخطى النـاس، ثـم حـدثت ضوضـاء نتيجـة ذلـك، وكاد جـابر أن يتصـارع مـع أحـد أهـالي المـرضى، لكـن تراجـع عـن ذلـك، وبينمـا هـو جـالس ينتظـر دوره حـتى تتصـل بـه زوجتـه، رفـع الهـاتف ولاحـظ رقـم زوجته، وصاح:

- آه نسـيت أن أخـبر أمكمـا بـالأمر يبـدو أنهـا تـوترت لعـدم رجوعنـا في الوقـت المحـدد فـهي غـير معتـادة على هذا.

بعـد ذلـك كلمهـا وأخبرهـا عـلى أنـه أخـذ كل مـن "مهـا وربـا" إلى مدينـة الألعـاب، تعجبـت في البدايـة ولكـن اقتنعـت في الأخـير ، لـم يكـن يريـد أن يقـول لهـا الحقيقـة، لـو علمـت عـلى أنهـم في المستشـفى لانهـارت، إضـافة عـلى ذلـك تحـاشى أن يسـمع بـاقي النـاس علـة ابنتيـه، وبعـد مـرور الـثلاث سـاعات كـان دور جـابر، وفحـص الطبيـب ابنتيـه وتبـين حقـا عـلى أنهمـا مصـابتان بالقمـل، وأخـبره الطبيـب عـلى مضـاعفة الاغتسـال ووصـف لـه بعـض الأدويـة الـتي توضع في الرأس "كالدهون والشامبو الخاصة".

***

ثم رجع إلى البيت مع ابنتيه من أجل أخذ بعض المال لأن المال الذي كان بحوزته لم يكفيه لشراء كافة الأدوية، وتساءلت زوجته إلى أين هو ذاهب، وأخبرها على أنه راجع، مشواراً قصيراً ويعود، وفي الأخير عرفت من ابنتيها ما حدث وتحسرت عليهما، وراحت تذم تلك المعيشة كالعادة، وسمعتها "ربا" وانفعلت ضدها:

- لما تتفوهين بهذا الكلام عن أبي يا أمي؟، كاد أن يتصارع مع أحد الأشخاص في المستشفى اليوم من أجلنا.
- لا لا شيء يا عزيزتي أعلم هذا، أبوك يتعب من أجلنا أنا آسفة تملكني الغضب ولم أعي ما أقول، إياكِ أن تخبريه بما بدر مني الآن.
- لا تخافي يا أمي لن أخبر أبي ولكن إياكِ أن تعيدِي هذا الكلام مجدداً.

كما كانت "ربا" ذكية دائما وتحب أباها كثيرا وتدافع عن الحق رغم صغر سنها، ومرت برهة من زمان حتى عاد "جابر" يحمل معه الدواء وأمر زوجته بأن تحترم ما أخبره به الطبيب وأن تراعي ذلك مع بناتها وهذا ما كان، ونوه على مضاعفة الاغتسال وذلك من أجل القضاء على ذلك القمل.

***

كان "جابر" يعيش في حي يعج بالأحوال المزرية والأوضاع المتدنية، كما كان يعاني ندرة المياه، وهذا ما أدى إلى انتشار القمل لدى ابنتيه، وهو حي فوضوي يتكون من حوال 80 بناية غير مطابقة للمعايير والشروط التي لا بد أن تتوفر عليها البناية العصرية، كما كانت تلك الأرض غير قانونية، واستغلها الناس منذ مدة، كما ورث جابر ذلك البيت عن والديه.

بعدها بحوالي أسبوع زال خطر القمل وشفيت منه الفتاتان، وعاصر ذلك آخر أسبوع دراسي لهما ومن ثم انتهت السنة الدراسية، بتفوق ابنتي "جابر" بالرغم من تأخرهما لأسبوع، ومن ثم بدأت العطلة الصيفية والطويلة التي تستمر إلى ثلاثة أشهر وانتقلتا بذلك إلى الصف الرابع.

وفي أحد الأيام وكعادته جابر يحمل أكياس النفايات مع صديقه أدهم حتى تمر عليهما امرأة وابنها، وفي تلك الوهلة تسارعت وتيرة مشيها ورفعت إصبعيها وكانا (الصبابة والإبهام) ووضعتهما في أنفها لكي تحجب تلك الرائحة عنها، ولاحظ ابنها ذلك وأخبرها باستغراب:

***

- ماذا تفعلين يا أمي؟
- الرائحة كريهة جدا يا ابني، لم أستطع أن أتحمل، أعمل مثلي أعمل مثلي لكي لا تختنق! أسرع أسرع.

بعدها أمسكت ابنها من يديه وأسرعت في المشي، وكان ذلك تحت أنظار "أدهم" وجابر بعدها أخبر "أدهم" "جابر":

- لما يعاملنا الناس هكذا يا صديقي؟ أ يوجد خطب ما؟ أم يسخرون منا لأننا ببساطة عمال نظافة؟ أو (زبالين) مثل ما ينادننا آه يا صديقي آه، لو وجدت مكانا آخر غير الذي أنا فيه لما تراجعت في الذهاب له دقيقة واحدة.
- لا يا "أدهم" ولكن يبدو طُبِع عليهم النسيان، "هم مصدر كل تلك النفايات، ولولانا لماتوا خنقا مثل ما كانت تدعيه تلك المرأة"، "صحيح تدعونني بالزبال، ولكن لو تُركتم ليومٍ واحد لغرقتم في بحر من القاذورات والمخلفات البشرية."
- معك الحق كله يا "جابر" كلامك أعاد لي نشاطي وعزيمتي.
- دعك منهم يوما ما سيعرفون الحقيقة .

***

ثـم اسـتمرا في المشي- والعمـل حـتى وصـلا إلى "فـيلا كبـيرة" جلـس "جـابر" وأسـند يديـه للخلـف وألـقى مكنسـته عـلى كتفـه، وراح يفكـر في نفسـه ويحـدثها: مـاذا لـو كـان مثـل هـذا القصر- لي؟ لـن يـنقص مـن العـالم شيء!، ولكـن هي هكـذا الـدنيا قسـم رفعتـه والكثـير حطمتـه، وفي تلـك الأثنـاء يقبل "أدهم" ويخاطبه:

- أراك شـارد البـال آه يبـدو أن هـذه "الفـيلا" أخـذت عقلـك في كـل مـرة أراك تصـوب ناظريـك إليهـا، لا تحلم كثيرا يا صديقي فنحن كُتب علينا الشقاء.
- أتـدري يـا "أدهـم" يبـدو حـتى الحلـم ومـنزوع عنـا نحن الفقراء.

وهمـا يتحـاوران حـتى تفـتح بوابـة تلـك البنايـة ويخـرج منـه رجـل يبـدو عليـه الـثراء وتعلـو ملامحـه السـعادة والبهجـة، نظـر أمامـه وجـد عـاملي نظافـة نـادى عليهمـا وأشـار بيـده لهمـا، تعجـب "جـابر" و"أدهـم" ونظـرا إلى بعضـها البعض، ثـم أشـار "جـابر" بإصـبعه الصـبابة اتجـاه صـدره، حركـة يقصـد بهـا أتعـني نحـن، ثـم رد عليـه الرجـل بحركـة أخـرى برأسـه تعـني نعـم، ثـم أقبـل إليـه كـل مـن "جـابر وأدهم"، ثم قال:

***

- ما رأيكما أن تذوقا بعضاً من "فطيرة الموتزاريلا" Mozzarella ؟

ورد عليه "جابر" متعجبا من هذه الكلمة، فكان أول مرة يسمع بها لذا تعجب.

- ما هذه؟
- (ضاحكا) يبدو أنك لا تعرفها هذه جبنة إيطالية مشهورة ولذيذة عبارة عن فطيرة مصنوعة من هذه الجبنة، إنها شهية جدا لن تندم عليها.
- لا لا شكرا يا سيدي.

وكان "جابر" رجلاً فقيرا لا يتناول إلا الجبن الرخيص ومحلي الصنع لهذا لم يتعرف على هذه الجبنة، كما كان لجابر عزة نفس اعتبرها صدقة من ذلك الرجل الثري لذا امتنع من الأكل، وفي تلك الأثناء يأتي صديقه مسرعا ويعلم ذلك الثري أن لا يأخذ كلامه محمل الجد وأخبره:

***

- يا سيدي في الحقيقة نحن منذ الصباح الباكر لم تستقبل بطوننا أي لقمة رغيف أو خبز.
- حسنا حسنا.

ونادى على أحد الحارس وأحضر فطيرة من "الموتزاريلا" كانت شهية، أكل كل من سائق الشاحنة و"جابر" وصديقه، بعدها أشعل الثري سيجارة كانت فاخرة وينظر إليه جابر: يرى أن أصابع ذلك الرجل تتخللها بعض الزينة من خواتم ذات جودة عالية وتحمل مجوهرات حقيقية، وساعة يد جميلة، ونظارات شمسية أنيقة، لاحظ الثري ذلك وأخبره:

- أتريد شيئاً آخر؟

قبل أن يرد عليه "جابر" أخبره صديقه ضاحكا: أن جابر يحب التدخين ربما تلك السجائر استلهمته، وفي تلك اللحظة دفع "جابر" بيده نحو صديقه حركة تدل على أن يصمت، بعدها أخرج ذلك الرجل علبة سجائر فاخرة وأعطاه سيجارة ثم أخرج ولاعة باهضة الثمن، ثم قال:

- اليوم أنا في مزاج جيد خذ مني ولا تستحي اليوم ليس كباقي الأيام الأخرى.

***

وانصرف ذلك الرجل وجابر في حيرة من أمره، وأخبر جابر أن يحتفظ بالولاعة و تلك العلبة من السجائر كهدية منه، وقبل جابر تلك الهدية وشكره كثيرا وأخبره إن كان يريد تنظيف منزله دون مقابل، لكن الثري تحجج على وجود الخدم ولا يحتاج إلى ذلك.

أقبل "أدهم" من "جابر" وكان يكلمه عن هذا الشخص الثري والمجواد، ومدحه كثيراً، وأَعجب بتلك الأكلة ومازحه قائلا:

- ما إسمى تلك الفطيرة الموت.... زيلينا أو زرينا ، "المهم"، بعدها قاطعه جابر:
- "الموتزاريلا ... الموتزاريلا"
- يبدو أنك حفظتها يا "جابر".
- صحيح في الحقيقة أريد أن أشتري تلك الجبنة لعائلتي، وأخبر زوجتي أن تعد مثلها.

وانتهت مداومة "جابر" الصباحية، وذهب ليرتاح ساعة من زمان في بيته، خصوصا أن عمله الثاني كان يبدأ بعد الظهيرة، وبينما هو جالس في بيته، حتى يتذكر "فطيرة الموتزاريلا".

***

- أتـدرين يـا "سـميرة" اليـوم أكلـت أكلـة إيطاليـة تـدعى: "فطـيرة المـوتزاريلا" كانـت تتكـون مـن جـبن المـوتزاريلا وبعـض الـدجاج وكـذلك التوابـل إن لـم تخـني الـذاكرة، اممم كم كان مـذقها شـهياً، تمنيـت لـو أحضرت لكـم منهـا، ولكـن للأسـف لـم يتبـق منهـا شيء أكلناهـا أنـا وأصـدقائي ولـم يتـبقى منها شيء كنا جوعى كان يكررها للتبرير.
- هل تعرفينها؟
- لا ولكن أسمع بها أخبرتني أختي عنها.
- آه نعـم أختـك زوجهـا "مهنـدس" أكيـد تعرفهـا ليس مثلي ...
- ما به زوج أختي؟

وكانـت في المطـبخ آنـذاك لـذا لـم تسـمعه جيـدا...، تعـد الطعـام لجـابر وللبنـات مـن أجـل أن يتنـاول وجبـة الفطـور ويغادر إلى عمله الثاني.

- لا لا شيء.

***

وفي تلك الليلة يعود "جابر" ليستلقي ليلا على سريره، بعدها يشغل التلفاز وبينما هو يقلب من قناة إلى قناة يتوقف عليه الأمر على قناة إخبارية، إذّ به يسمع خبر مفاده: السطو على مجموعة من المحلات التجارية التي تختص ببيع المجوهرات الثمينة كما تم السطو كذلك على أكثر من بنك وسرقة أموال ضخمة من هناك، وجاء في البيان أن عصابة محترفة من قامت ذلك وما زال البحث جارياً عن تلك العصابة، وبينما جابر يسمع الخبر ينادي على زوجته فتأتي مسرعة:

- ما بك ما لذي يحدث لكي تناديني بهذه النبرة.
- استمعي استمعي.

بعدها استمعت زوجته وردت عليه: سرقة كباقي السرقات الأخرى يحدث هذا كل يوم، بعدها نظر إليها جابر وخاطبها: اذهبي لإكمال وجبة العشاء لا تفقهين شيئاً قال عادي قال، أنتن النساء لا تفقهن شيئاً إلا وجع الرأس، واستمر في الحديث: هذه الأموال والمجوهرات تدوم إلى أجيال عدة، الله يكون مع الضحايا المساكين كيف سيكون حالهم الآن.

***

3

في أحـد الأيـام أخـبرت "سـميرة" زوجهـا "جـابر" عـلى ضرورة الاحتفـال بعيـد مـيلاد ابنتيهمـا حـتى ولـو كـان مـرة واحدة بالعمر، ووافق زوجها على الفكرة وقال:

- أتعلمـين يـا سـميرة أفكـر أن أهـديهما هـديتين تليـق بهمـا، منـذ ولادتهـم لـم نتـذكرهما ونحتفـل سـويا بعيـد ميلادهمـا، الحيـاة أعمتـني عـن بنـاتي ولقمـة العيش أنستي بعض الواجبات.

وردت عليـه سـميرة عـلى أن الوقـت لـم يفـت بعـد وهنـاك فرصـة للتعـويض، وحاولـت سـميرة معرفـة هـدايا البنتـين وأخذ رأيها:

- عزيـزي مـا الهديـة الـتي تسـتطيع جلبهـا للبنتـين؟ هـل هنالك نوع محدد ما رأيك في لباس جديد لهما ؟.
- أنـا أفكـر في ذلـك وأفكـر أيضـا في اقتنـاء بعـض الألعـاب كالـدمى للعـب بهـا وقـت فراغهمـا، كمـا أريـد أن أشـتري كعكـة المـيلاد ودجاجـة وبعـض المشرـوبات والمكسرـات ليكـون احتفـال يليـق بهمـا وبنا.

***

كما كان رد "سميرة" إيجابياً وأعجبت بالفكرة وسعدت لسماع ذلك بالرغم من الفقر الذي يعانونه إلا أن "جابر" أراد السعادة حتى ولو كلفته الكثير ففي الأخير هذا بيته وهذه عائلته.

ويوم الميلاد اشترى "جابر" بعض المستلزمات التي تحتاج إليها زوجته ولم يتبق له إلا الكعكة والدمى، حيث اشترى من قبل لباس لهما هو وزوجته دون علم ابنتيه، وذلك كله ليبقى الأمر مفاجأة وتركناهما آنذاك عند أخت "سميرة"، وأحضر بعدها الكعكة دون أن تشعر "مها وربا" واللتين كانتا تشاهدان التلفاز، وأدخلتها زوجته بسرعة لإخفائها، ثم انطلق للمهمة الأخيرة والمتمثلة في: إحضار الدمى.

وفي تلك الأثناء أرادت "مها" أن تشرب بعض الماء، وذهبت للمطبخ ولحظة وصولها شاهدت أمها تطبخ سألتها عن الذي تطبخه فردت عليها مفاجأة، بعدها شربت الماء وانصرفت، ثم أخبرت أختها كأن أمها تخفي علينا شيئا، وكان من "ربا" إلا أن تجيب ضاحكة:

- ربما يخططا للاحتفال بعيد ميلادنا.
- لا لا أعتقد ذلك أختي.
- أعلم ذلك أن أمزح معك، دعينا نكمل مشاهدة أفلام الكرتون.

***

يسارع "جابر" الزمن بالبحث عن دمى تليق بهذا اليوم، وفي الحقيقة لم يتبق معه الكثير من المال، نتيجة اقتناء العديد من الأشياء فكيف لراتبه البسيط أن يستوعب كل هذا وبالرغم من مضاعفة عمله، إلا أن ذلك لم يشفع له نتيجة غلاء المعيشة وارتفاع الأسعار، وبينما جابر يقلب هنا وهناك حتى وصل إلى متجر دمى كبير تيقن أن ما يريده هناك، ودخل المتجر وسلم على صاحبه، واستشاره على نصحه ببعض الدمى المتشابهة والتي تكون من الجنس نفسه ، كون أن بناتيه توأم ولا يريد التفريق بينهما، أشار عليه البائع على بعض الدمى، ولكن كانت باهضة الثمن لأن معظم الدمى هناك أجنبية الصنع، وكان متجر يعج بالصناعة الإيطالية.

وهو يبحث ويدور عن دمى تكون أرخص نوعا ما لفت انتباهه دميتان على شكل دب أحدهما يتخلله اللون الوردي والآخر اللون البني، وحاول جابر أن يشتري تلك الدميتين وأشار إليهما مخاطبا البائع:

- كم ثمن تلك الدمية على شكل الدب؟
- آه هذه ثمنها ثلاثة آلاف دينار
- ماذا؟ أجننت؟ هذه مجرد دمية يعني الدميتين بمجموع الستة آلاف! إنها ربع أجري.

***

- لا تنسى ـ يا سيدي هذه إيطالية الصنع كما أن هذه الدمية تصدر صوتا عند لمسها وهي كبيرة الحجم نوعا ما.

وكانت الدمية حجمها تقريبا 50 سنتيمترا، وتصدر صوت من ثلاث أماكن من أنف تلك الدمية ومن يديها ومن بطنها الذي هو على شكل قلب، بعدها تريث قليلا وفكر ثم تذكر "جابر" ابنتيه وعزم على اشتراء تلك الدميتين، دمية "لمها" وواحدة "لربا"، بعدها أدخل يده في جيبه وأخرج ورقتين من 2000 دينار وكانت بمجموع أربعة آلاف دينار مما ينقصه 2000 دينار أخرى، في تلك اللحظة دفع ثمن دمية واحدة وأخبر البائع على أنه سيعود ويأخذ الثانية ولكن لم يدفع جابر أي دينار للأخرى، ثم خرج في عجلة من المتجر وفي تلك اللحظة يلتقي ذلك الرجل الثري وكان مع طفلة صغيرة جميلة تحمل ملامح أوروبية وكلم جابر خاطره: "سبحان الله دمية تريد أن تشتري دمية"، وذلك لجمالها، وسلم عليه جابر"

***

- مرحبا سيدي كيف حالك؟

نظر إليه ذلك الرجل وكان مرتديا لباسه الأسود الأنيق "الكلاسكي" ومصحوب مع رجلين كانا ذا قامة فارعة وضخام الجثة يلبسان الأسود كذلك، وفي تلك اللحظة يرد عليه ذلك الرجل:

- من أنت أتعرفني يا هذا؟

وكان ينظر إلى "جابر" نظرات تدل على الاحتقار، وهذا ما أزعج "جابر" وخاطبه:

- لا لا شيء يا سيدي عذرا لقد أخطأت.

بعدها أكمل "جابر" طريقه واتصل بصديقه "أدهم" وشرح له الموضوع وأنه بحاجة إلى مبلغ الألفا دينار، ورجع جابر مسرعا ليستعير ذلك المبلغ ويعود ليكمل شراء باقي الدمية، وبعدها عاد "جابر" إلى المتجر بحوزته المبلغ.

وقبلها بلحظات دخل الثري إلى المتجر وأخبر البائع على أن ابنته تريد أن تختار وعلى أقل من مهلها أي دمية تشاء، ولا تتدخل أنت، وكما كان الحال كانت الطفلة تطوف في المكان وتتجول داخل المتجر الكبير، حتى أشارت إلى ابيها على دمية كبيرة، كما أرادت دمية أخرى وكانت "دمية الدب" ذات اللون البني التي لم تبع بعد.

***

هنا تدخل البائع:

- ولكن يا سيدي هذه الدمية بالذات كلمني عليها رجل آخر ويريد أن يأخذها
- ماذا تقول؟ أتريد أن أحرق دكانك وأحرقك معه (نبرة حادة ومخيفة)، إياك أن تعيد مثل هذا الكلام أنا أطلب وأنت تنفذ.

هناك خاف البائع وأدرك جدية الأمر، واعتذر منه وباعه تلك الدمية، ثم غادر الثري المتجر بسيارته التي كانت من نوع "الليموزين" سوداء اللون.

وهنا يصل "جابر" للمتجر يلهث والعرق يصب من جبينه صباً وأخرج المبلغ المطلوب ووضعه على رف المتجر، نظر "جابر" إلى البائع مخاطبا إياه:

- ما بك لا تخبرني أنك تريد أكثر من ذلك؟
- في الحقيقة يا سيدي أنا أعتذر ولكن الدمية لم تعد موجودة.

نظر إليه ثانية "جابر" وشده من قميصه ورفع نبرة صوته:

- أتمزح معي كل هذا الشقاء وفي الأخير تستهزئ بي ما الذي تقصده بكلامك؟

***

- حسنا حسنا سأخبرك، بعد أن غادرت المكان دخل ذلك الرجل الذي كان رفقة الرجلين الآخرين وهددني، أقسم أنني حاولت منعه من بيعها له لكن بلا جدوى، إضافة إلى ذلك أنت لم تدفع لي ثمنها لكي تحدث كل هذه الضجة، اختر غيرها من الدمى.

بعدها لم يعقب "جابر" على كلام البائع وأمر أن يضع تلك الدمية ذات اللون الوردي داخل علبة ويزينها على شكل هدية، ثم غادر المتجر وهو حزين ويكلم نفسه ويخاطبها كالمجنون: "حظي سيئ منذ ولدت لم أذق إلا التعاسة في حياتي، ذنبي لأنني أردت إسعاد بناتي وإدخال السرور على قلبهما، كيف سأقابل زوجتي الآن"، أخِ... لو كان راتبي مرتفعاً قليلا لما حدث كل هذا لما الحياة قاسية هكذا علي!."

وهو في تلك الحالة حتى دخل بيته ولاحظت زوجته حالته وحاولت أن تعرف منه ما الذي يجري، بعدها ولأول مرة لم تعاتبه بل وقفت لجانبه وأخبرته على أنه حاول إسعادهما، إضافة يمكن لهما تقاسم الدمية معا، حتى يفرجها الله عنهما، وهذا ما كان، وتلك الكلمات من زوجته أعادت الروح لجابر.

***

وفي تلـك الليلـة وبينمـا "جـابر" يلاعـب ابنتيـه، دخلـت علـيهم خلسـة زوجتـه وأشـارت إليـه ليشرـعا في تحضـير المفاجـأة ثـم أمرهمـا أن يغمضـا العينـين وإلا لـن يلاعبهمـا ثانية.

وهـذا وأمرهمـا أن لا يفتحـا عينيهمـا حـتى يحـين الوقـت المحـدد لـذلك، وفي تلـك الوهلـة أسرعـت زوجتـه ووضـعت الكعكـة عـلى تلـك الطاولـة الصـغيرة وجلبـت الهـدايا وأطفـأت الأنـوار ثـم أشـعلت الشـموع، وفي تلـك اللحظـة أمـر جـابر ابنتيـه الآن يمكـن لكمـا فـتح أعينكمـا الجميلتـين، وفي تلـك اللحظـة فتحـت كـل مـن "مهـا وربـا" عينيهمـا: حـتى انبهـرا بالمشـهد كـان أول مـرة في حياتهمـا هـذا الاحتفـال بعيـد المـيلاد وفتحـت "مهـا" فيهـا والسـعادة تعلـو محيـا وجههـا ووضـعت يـديها في فمهـا دلالـة عـلى الانبهـار، وكانـت "ربـا" تصـفق وتتسـاقط منهـا بعـض الدموع فرحا بأبويها وكان شكها في محله.

ثـم عَـدّ جـابر للثلاثـة وأمـر كـل مـن "مهـا وربـا" أن ينسـفا عـلى الشـموع في الوقـت نفسـه وفعلـت ذلـك، بعـدها وزع الهـدايا عليهمـا وكانـت عبـارة عـن "فسـتان جميـل" لكـل واحـدة منهمـا، وكانـت الهديـة الأخـرى "دميـة الـدب" الـتي تصدر موسيقى.

***

ورغـم أنهـا كانـت دميـة واحـدة إلا أنهمـا سـعيدتا بـذلك وألقـين بجسـدهما الرقيـق عـلى أبيهمـا وعانقهمـا في مشـهد يـدل عـلى المـودة والحـب والفـرح والسرـور، كيـف لا وذلـك كان مـن أسـعد الأيـام لهمـا وقـبلا "جـابر"، كمـا أمـر "جـابر" أن يقـبلا أمهمـا لأنهـا كـذلك تعبـت في تحضـير الطعـام ومـا إلى ذلـك وهـذا مـا كـان، وحُفِـر ذلـك اليـوم في ذاكـرتهم جميعا للأبد.

وأخـبر جـابر كـل مـن "مهـا وربـا" إذ يتمنيـان شـيئا معينـا، فكانـت "ربـا" تريـد أن تصـبح طبيبـة وأن تعـالجهم إذا مرضـوا، أمـا عـن "مهـا" فـأرادت أن تكـون معلمـة مـن أجـل أن تعلـم العلـم، وهكـذا انتهـت تلـك الليلـة بـين الواقـع والأمنيات الجميلة.

***

4

وفي اليوم الموالي فاجئ جابر كل من زوجته وابنتيه عن زيارة مدينة الملاهي، حيث أراد "جابر" أن يذهب مع أهله بعد أن انتهى من عمله، واستقل جابر سيارة أجرة حيث لم تكن له سيارة، وبالرغم من ذلك استأجر سيارة أجرة وزار مدينة الألعاب ولحظة وصولهم هناك عمت البهجة والسرور وطرقت السعادة قلبي التوأم مجددا وهذا ما أثلج قلب جابر و زوجته فقال مخاطبا لها:

- أتعلمين يا روحي السعادة الحقيقية هي أن تكون البنتان سعيدتين.
- صحيح، راتبي ضعيف ومنزلنا بسيط ولكن هذه السعادة لا تضاهي أي ثمن.
- صحيح يا عزيزي أطال الله في عمرك وحفظك الله لنا.

وبعد قضاء تلك الإجازة القصيرة عاد جابر وعائلته للمنزل، ولحظة وصل "جابر" للمنزل لاحظ وجود ورقة مرمية على عتبة الباب، ثم حملها ودخل المنزل، بعدها جلس ليرى ما هو مكتوب في تلك الورقة، فتحها ووجد مكتوبا عليها: إشعار بإخلاء البيت مدة لا تتجاوز العشرة أيام.

***

لأن كل البنايات العشوائية ستهدم من قبل الحكومة، وكل من يخالف هذه التعليمات يتعرض للعقوبات، وفي تلك اللحظة انهار جابر ووقع عليه الخبر كالصاعقة

وتبدد كل شيء أمام عينيه وراح يفكر أين أذهب؟، وما الذي سأفعله؟، وفي تلك اللحظات أقبلت عليه زوجته وحدثته:

- ما هذه الورقة حبيبي؟ ما بك آهناك خطبا ما!

وأسرعت إليه لاحظت أن هناك خطب ما، ورد عليها: اقرئي بنفسك، وما إن اطلعت عليها حتى انتابتها حالة من الصراخ والبكاء، اسرعت كل من "مها وربا" فزعا، لم يفهما شيئا، فقبل قليل كانت العائلة سعيدة ومسرورة، وبمجرد ورقة صغيرة انقلب حال العائلة ككل.

وفي تلك الليلة كان يفكر ويفكر كيف سيواجه معضلته هذه، وهو واضع يديه فوق رأسه، كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل ولم ينم تلك الليلة، وكانت "سميرة" مستلقية بجانبه، هي الأخرى كانت تنام وتستيقظ لم يغمض لها جفن، وكلمته:

***

- ألم تنم بعد، وكيف لي أنا أنام يا "سو"

وكان يناديها هكذا في أغلب الأحيان.

- أمـرك محـير يـا رجـل حـتى وأنـت تحـت الضـغط وتدلع اسمي!
- ليس دلع إنما اعتاد لساني عليه يا "سو".
- لما لا تتصل بأختك؟
- أخـتي؟ اسـتحيت في كـل مـرة أطلـب منهـا بعـض المال، لا أريد أن تنظر إلي نظرة الطماع في مالها.
- ولكن هي تشتغل "طبيبة بيطرية" وحرة في مالها
- أعلـم ذلـك أعلـم ولكـن ... قاطعتـه: يـا رجـل أتريـد منا أن تبقى في الشوارع ؟
- أدري ولكـن أنـتِ تعلمـين أنهـا تعـيش خـارج البلـد ومـا إن تصـل النقـود إلينـا نكـون قـد وجـدنا أنفسـنا في الشوارع مثل المتسولين.
- لا تقلق من هذا الجانب سأدبر أمرنا

وكانـت ملامـح الثقـة باديـة عـلى وجـه زوجتـه "سـميرة"، ثـم اسـتدار إليهـا ونظـر متعجبـا واقعـد جسـمه بينمـا كـان مستلقيا وخاطبها:

***

- كيف ذلك؟
- اختي يا "جابر" أختي غدا اتصل بها وأعلمها بالأمر واشرح لها وضعنا، لكن بشرط ما إن تصل الأموال حتى نستكري بيتا لحالنا.
- أختك وماذا عن زوجها تعرفين أنني لا أطيقه
- أووووف ... تعود إلى نفس السيرة دائما عن ذكر زوج أختي. لا تهتم لأمره لن يطول الأمر هي أيام ونغادر.
- حسنا دعيني أفكر وأقلب الموضوع مع نفسي- وغدا بعد أن أتصل بأختي، ييسرها الله.

وفي اليوم الموالي اتصل "جابر" بأخته وكانت متزوجة وتعيش في دولة أجنبية غير عربية، كما كانت متزوجة من رجل ثري، يعني أمورها جيدة، وكان "جابر" عندما يضيق به الحال يتصل على أخته بالرغم أنها غير شقيقة لأن والدته كانت متزوجة مرتين، وكانت أخته من أمه فقط، إلا أنها كانت دائما تحبه وتعطف عليه، حتى "جابر" كان يعامله ويبادلها نفس شعور وكان في بعض الأوقات يتصل بها ليسأل عنها، لذا لم يقطع علاقته بها رغم هجرتها عن البلد.

***

ووافقت أخته على إرسال له بعض المال، وكان ذلك بعد أن شرح لها الأمر كما أخبرته سترسل لها مفاتيح بيتها القديم والذي كانت تعيش فيه قبل رحيلها وكان بيت صغير في حي أصبح حاليا من أخطر الأحياء، ولكن رغم ذلك أسعد الخبر "جابر" وشكرها كثيرا.

ثم أخبر زوجته بذلك وسعدت لسماع الخبر وأخبرته :

- ألم أقل لك أن الله سييسرها
- صحيح الحمد الله الحمد الله.

بعدها تمر 9 أيام تجري بسرعة على عائلة "جابر"، وكان يستعد للمغادرة إلى بيت أخت زوجته، وفي اليوم الأخير استيقظ باكرا على غير عادته وغادر المنزل قبل الموعد المحدد، ثم حوالي نصف ساعة استيقظت زوجته وتحسست فراشها ولم تجده على السرير نادت عليه ولم يرد، ثم قامت وغادرت الغرفة وتكلم نفسها: ربما هو في الحمام، ودخلت إلى المطبخ ولاحظت وجود كأس صغيراً حملته كما كانت هناك بعض الرواسب المتبقية من القهوة حينئذ أدركت أن جابر غادر مبكرا بعد أن شرب قهوته المعتادة، ثم أسرعت للحمام فلم تجده، تبين حقا مغادرته البيت، وحدثت نفسها ثانية:

***

عجبا ليس من عادة جابر أن يغادر باكراً، يبدو أنه في مزاج جيد، لا يهم.

وفي تلك الأثناء وهو يمشي- ببطء ويدخن سيجارة كعادته ويتأمل في البنايات خصوصا الجميلة منها حتى وصل إلى "فيلا" ذلك الشخص، وينظر إليها وهو يدخن كان لا يزال يحتفظ ببعض السيجارة التي أعطاها له ذلك الشخص، ثم ينظر ويكلم نفسه ها هي القداحة وها هي السجائر ولكن تنقصني انتِ، وكانت يقهق ضحكا، بعدها قال: "يا لي من شخص طماع وفقير وحقير والطباع كلها"، ثم رمى السيجارة على الأرض وأطفأها برجله ثم نزل من أجل أن يحمل بقايها ليرمها في حاوية القمامات وهو في تلك الحالة، ينظر ويجد دمية دب مرمية تعجب متسائلا:

ما هذا التي تراه عيناي، إنها الدمية نفسها التي كانت في المتجر آنذاك، أسرع جابر إلى تلك الدمية وعاينها وما من لمسها حتى أصدرت الصوت نفسه التي تصدره الدمية التي اشتراها سابقا حاول أن يوقفها ولم يستطع بعد ذلك وضعها تحت إبطه من أجل أن يقلل من حجم الصوت وهو كذلك حتى توقف الصوت، كما لاحظ على أنها أثقل وزناً مقارنة بالدمية الأخرى،.

***

ثـم نظـر مـن حولـه وعـاين المكـان لا يوجـد شـخص أسرع مـن أجـل أن يخفيهـا ليأخـذها معـه عنـد رجوعـه للمـنزل ومـا مـن أخفاهـا حـتى يسـمع صـوت محـرك الشـاحنة أدرك أن أصدقاءه قد جاؤوا.

وبينمـا "سـعيد" سـائق الشـاحنة في الطريـق حـتى أوقفـه "جابر" تعجب صديقه قائلا:

- ما الذي تفعله هنا يا "جابر"؟
- لا شيء كنت أتمشى فقط
- تتمشى في هذا الوقت المبكر
- وما العيب في ذلك؟
- لا لا شيء ولكـن ألـم تسـمع بالـذي حصـل هنـا البارحة

نظر إليه "جابر" متعجبا:

- وما الذي حدث؟
- البارحـة هجمـت عصـابة خطـيرة هـذا المـنزل وتبـادلا إطـلاق النـار وهـرب السـيد الـذي كـان هنـا أتتـذكره يـا جابر؟
- مـاذا ! حـدث هـذا كلـه ؟ نعـم نعـم أتـذكره الـثري صـاحب الفطـيرة الإيطاليـة ولكـن أحـدث لـه شيء؟ ما به؟

***

- يا حبيبي تبين أنه رئيس عصابة خطيرة وكان هذا بيتا من بعض البيوت التي يختبئ فيها.

بعدها لم يستوعب "جابر" ما سمعه وهنا، تعود ذاكرته للوراء ويتذكر ما تعرض له رفقة صديقه، وكذلك المشهد أمام محل الدمى وتبين له كل شيء.

- دعنا منه دعنا منه أرجوك غير سيرته.
- حسنا حسنا.

وأنهى "جابر" عمله وهو عائد إلى المنزل تذكر تلك الدمية رجع مسرعا ولكن قبل ذلك، حاول إخفاءها وتحصل على علبة من بعض المتاجر ليخفيها بداخلها، وبالتالي رجع إلى البيت وهو حامل لتلك العلبة وكان آخر يوم له في ذلك المنزل، وما إن وصل دق على الباب وفتحت له زوجته وتعجبت وأخبرته:

- ما هذا الذي تحمله؟
- دعيني أدخل أولا وكانت البسمة مرسومة على وجهه
- تفضل ... تفضل ...

ثم نادى:

- أين أنتم يا بنات يا بنات

***

وزوجته مستغربة وواضعة يدها على خديها وجالسة على كرسي ننظر وتنتظر بشوق ماذا يوجد في تلك اللعبة، بعدها أتت كل من "ربا ومها" وجلسا أمامه، واستخرج تلك الدمية، وصرخت "ربا" بصوت عال: إنها دمية إنها دمية، بعدها: أعطاها لابنته "ربا" لأن "مها" كانت تلعب كثيرا بالدمية الأخرى، وهذا ما أسعد "ربا"، ثم سحبته زوجته من يده وخاطبته:

- من أين لك المال لكي تشتري الدمية ألا تعلم الضائقة التي نحن فيها؟
- (مبتسما)... لا تتعجلي لقد وجدتها مرمية وراء حاوية النفايات، يبدو أن صاحبها تخلى عنها.
- ماذا! كانت في وسط القمامة؟
- لا لا لم تكن كذلك انما كانت مرمية بجانبها، يبدو أن أحد ما رماها هناك.
- كنت أعتقد ...
- لا... أنا لا ألتقط مخلفات الناس التي تكون مرمية في الأكياس وداخل الحاويات، كل ما في الأمر كانت الدمية في حالة جيدة ومرمية خارج الحاوية كما أخبرتك، إضافة إلى ذلك عندما أريد شيئا أشتريه بعرق جبيني ولا أنتظر صندوق الهدايا (يقصد هنا الحاوية)، لأن صديقه "أدهم" كان يأخذ بعض الأشياء التي يجدها هناك مرمية، لكن جابر كان يتعفف عن فعل ذلك.

***

وقبل ثلاثة أيام حدثت مناوشة بين "جابر" وصديقه "أدهم" مع ذلك الثري وقد أخفاها "جابر" عن سائق الشاحنة وعن أهله، وكان ذلك في يوم عملهما، وكالعادة وصل "جابر" و"أدهم" إلى أمام الفيلا وكان من عادة السائق وطبيعة عملهم، وقبل أن يلتقطوا القمامة ويجمعانها، أن ينظفا أرضية الشارع إذا كانت متسخة، ثم يجمعا القمامات بعد ذلك، وكان هذا يأخذ بعض الوقت لذا كان السائق يترك شاحنته ويذهب يتمشى- قليلا بعد أن يُنظَف المكان، وهكذا ...

وبينما هما أمام تلك الفيلا حتى تفتح البوابة ويخرج منها ذلك الثري وكان يدخن بشراهة، أسرع إليه أدهم وسلم عليه:

- أهلا سيدي كيف حالك؟

في تلك اللحظة لم يبرح "جابرا" مكانه كان جالسا ممسكا مكنسته ويكنس الأرضية ببطء ويراقب الموقف، بعدها أخرج الرجل كمية كبيرة من "الدخان" من فمه وكان رأسه مصوب للأعلى بعدها، نظر إليه مخاطبا أيه:

- من أنت أيها الحثالة؟

وفي تلك الأثناء ينفجروا الحراس من الضحك ويقهقون، تعجب "أدهم"، وابتسم قائلا:

***

- أنا يا سيدي أنا ألم تتذكرني؟

ينظر الثري إليه من أسفل "أدهم" إلى أعلاه، ثم يلتفت لحرسه:

- أتعرفونه يقول إنه يعرفني؟
- لا يا سيدي لا يعرفك ولا نعرف هذا الشخص مجرد "زبال"، يبدو أن الأمر اختلط عليه
- إذن ما الذي يريده في نظركم؟
- يبدو أنه يريد بعض الحنان منك يا سيدي

ثم يضحكون ثانية، وكان "جابر" يقترب خطوة خطوة ناحية صديقه "أدهم" كان يشعر كأن شيئاً سيحدث عن قريب، بعدها أخرج الثري يديه من جيبه ونظر إلى إحداها ثم في لمحة بصر يضرب "أدهم" صفعة أسقطته أرضا، هناك أمسك "جابر" عصا مكنسته بقوة، وأسرع إلى "أدهم" ليحمله، وينطق "أدهم" وهو "يحك" في وجهه:

- لما كل هذا يا سيدي؟ ما الذي فعلته لك لكي تضربني؟

بعدها نظر الرجل إلى حراسه، وفهموا الإشارة

***

- يبدو أنك لم تفهم بعد أيها "الزبال النتن"

هنا لم يتحمل "جابر" الوضع وهو يستمع لتلك المسبات والإهانات تخرج من فم ذلك الرجل: وقام إليه:

- من أنت لكي تتحدث إلينا هكذا؟ يبدو أن الثراء أعمى بصيرتك

وكان "جابر" في غاية الانزعاج ويمسك المكنسة من حافتها، كأنه مستعد للقتال!، وينظر إليه ذلك الثري وبعدها ينظر إلى حارسه ويخاطبهم قائلا:

- يبدو أن لدينا هنا رجل شجاع ما رأيك أن تعمل عندي؟ تلك النظرات أحببتها

ويضحك بعدها ثم يلوح بيده ويحاول أن يصفع "جابر"، حتى يمسك "جابر" يده ويدفعه للوراء ترنح ذلك الثري قليلا وكاد أن يسقط كان أكبر منه سننا و"جابر" لا يزال شابا قويا.

***

وفي تلك اللحظات يسرع حارس إلى سيده ويمسكه والآخرين ينهالون على "جابر" وصديقه ضربا و"جابر" يدافع عن نفسه استطاع أن يطيح بأحدهم كانوا ثلاثة ولم يتبق إلا اثنان ثم أسرعوا إليهم 4 حراس آخرين وهنا "جابر" لم يستطع أن ينقذ حاله وحال صديقه "أدهم" وهم يتعرضون للضرب حتى يأمرهم سيدهم بالتوقف ونظر إلى "جابر" وركله بإحدى قدميه ثم أخبره بهذه الكلمات وغادر:

- "أنت مجرد زبال ولدت لكي تحمل مخلفات الناس لو كان الأمر بيدي لصنعت لك بيتا من النفايات وأسكنتك فيه"

وفي تلك اللحظة حاول أن ينهض لكن "أدهم" منعه من ذلك لأنه أدرك خطورة الأمر، ثم نهض كل من "جابر" و"أدهم" وكانا يتكئان على بعضها البعض ويمشيان بصعوبة والدماء تملأ وجههما، وكان يحاول "جابر" أن يسرع من وتيرة المشي- ولو قليلا لكي لا يلاحظهم سائق الشاحنة ويبلغ عندهم وأخبر "أدهم":

***

- "أدهـم" لا تخـبر أحـدا بمـا حـدث لنـا اليـوم، إذا سـألنا السـائق أو أي أحـد آخـر أخـبره أن بعـض اللصوص تعرضوا لنا وكانوا أكثر عددا منا.
- لصوص! ولما ذلك يا جابر
- اِفعل ذلك وإياك أن تشتكي للشرطة

انـزعج أدهـم لكلامـه كيـف لا وهـو يتعـرض للسـب والشـتم والضرب، لكـن كـان جـابر يـعي مـا يقـول، لأنـه أحـس بخطـورة الوضـع وأن ذلـك الـثري لـيس رجـل عاديا.

بعـدها غـادر جـابر وعائلتـه إلى بيـت أخـت زوجتـه لإكمـال حيـاتهم هنـاك بعـض الوقـت، بينمـا يفرجهـا الله عليهم،كمـا أخـذوا بعـض الملابـس الضرـورية، كمـا تخـلى جـابر عـن الأثـاث لأنهـا كانـت قديمـة، حـتى ولـو أراد ببيعهـا لا تبـاع، وهكـذا انتقـل جـابر إلى هنـاك مرغمـا عنـه، وكـان بـين الحـين والآخـر يتفقـد البريـد إذا وصـل الطـرد مـن أختـه أمـا لا، ومـرت بعـد ذلـك أسـبوع وجـابر غـير مرتـاح تمامـا، وفي أحـد الأيـام وهـو في ذلـك المـنزل يسـمع صـوت زوج أخـت "سـميرة" غاضـبا ويتبـادل الكلام مع زوجته عن "جابر" وكان يقول:

***

- أنـا بيـتي لـيس فنـدقا، فليـذهب ويبحـث عـن منزلا آخر يأويه

بعدها ترد عليه زوجته:

- اصــمت يــا رجــل ... اصــمت ... سيســمعوننا فضحت أمرنا
- فليسمعوا طفح الكيل

وغادر البيت وهو غاضب ودفع بباب المنزل بقوة

ثــم انــزعج جــابر وعــاد إلى الغرفــة الــتي توجــد فيهــا عائلته، وسألته سميرة:

- ما الذي يحدث؟

ورد عليها:

- يبـدو يـا "سـميرة" أننـا أصـبحنا عبئـاً عـلى أختـك وعائلتهـا، كـم مـن مـرة نبهتـك أن لا آتي إلى هنـا فزوج أختك لا أطيقه لا أطيقه.
- غـدا سـأعود مجـددا إلى البريـد وأرى مـا الجديـد، مـرت أكـثر مـن عشريـن يومـا منـذ كلمـت أخـتي، وأسـبوع عنـد بيـت أختـك، إن شـاء الله إن شـاء الله غدا ننتقل إلى منزل أختي.

***

- حتى أنا مثلك يا جابر أتظنني مبسوطة بالعيش هنا؟ لا والله لا يوجد مثل بيت لحالنا حتى ولو كان صغيرا مثل الذي كنا فيه.

وهنا تذكرت سميرة ذلك البيت القصديري الذي حواها خلال تلك السنين، صحيح بيت صغير و من الطوب وبعض المواد الأخرى إلا أنها كانت تجد راحتها هناك.

وفي اليوم الموالي عاد مجددا جابر إلى مركز البريد لينظر إن وصل الطرد فكانت المفاجأة وصل الطرد حقا، استلمه ثم فتحه مباشرة ووجد فيه مفتاح البيت مثل ما وعدت أخته ومبلغ من المال كان مبلغ محترما، وأراد أن يتصل بأخته لكن كان رصيد حسابه فاض آنذاك، بعد ذلك اتصل بها وشكرها، ثم عاد مسرعا إلى "سميرة" حاملا معه المفتاح وفي طريقه إلى هناك أخبرها أن تحضر نفسها للمغادرة إلى بيت أخته، ومن شدة الفرح نسي أن الأثاث قد باعها ويلزمه بعض اللوازم للبيت فالآن أصبح لديه مبلغ محترم إلى جانب راتبه البسيط من وظيفته الرئيسية وعمله الإضافي الثاني.

***

5

ثـم وصـل إلى بيـت أخـت "سـميرة"، وتشـاورا في الأمـر ثـم خلـص جـابر وزوجتـه عـلى أن يـذهب ليتفقـد البيـت وفعـلا ذهـب إلى هنـاك وكـان البيـت في مدينـة أخـرى وكـان الوقـت يسـتغرق سـاعة فقـط ويصـل إلى هنـاك بالسـيارة، بعـد أن اسـتقل سـيارة الأجـرة عوضـاً عـن الحافلـة وصـل إلى هنـاك في حـدود سـاعة مـن الـزمن، ثـم نـزل مـن السـيارة وراح يبحـث ولكـن تعجـب كيـف أصـبح ذلـك المكـان يعـج بـالفقراء والعصـابات، ... أكمـل طريقـه حـتى وصـل إلى بيـت أختـه كـان بيتـا صـغيراً وخلفـه خرابـة تابعـة لـه، تعجـب مجـدداً عـن سـبب عـدم اسـتغلالها مـن طـرف عائلـة أختـه، لكـن كـان يقـول في نفسه:

ربمـا السـفر منعهـا مـن ذلـك فـهي في الأخـير تعـيس اليـوم خـارج البلـد، ثـم وضـع المفتـاح في البـاب وفتحهـا ودخـل، كـان بيتـا يتكـون مـن ثـلاث غـرف عكـس البيـت القـديم الـذي كـان يتكـون مـن غـرفتين فقـط، إلى جانـب حمـام ومرحـاض ومطـبخ، والعجيـب في الأمـر أن الأثـاث موجـودة عـلى حالهـا وهـذا مـا أثلـج قلـب "جابر"، فالبيت جاهز.

***

وهـو يتجـول داخلـه ويـرى مـا الـذي ينقصـه انتبـه عـلى عـدم وجـود ثلاجـة و تلفـاز، هنـا قـرر أن يشـتري ثلاجـة وتلفـاز، كمـا قـرر أن يشـتري لزوجتـه سـميرة غسـالة ملابـس، لأنهـا كانـت تعـاني سـابقا مـن غسـيل الملابـس باليد.

ثـم مبـاشرة انطلـق جـابر يـدور عـن متجـر يبيـع تلـك الآلات وبالفعـل وجـد واشـترى آلـة غسـيل صـغيرة الحجـم لكـن تـفي بـالغرض كمـا اشـترى ثلاجـة متوسـطة الحجـم وأدخلهمـا إلى البيـت بمسـاعدة بعـض الشـباب في الـحي، ثـم وضـع الثلاجـة في المطـبخ وآلـة الغسـيل في غرفـة الاسـتحمام، كمـا انتبـه جـابر عـلى أن المكـان يحتاج إلى تنظيف.

وبعـد ذلـك رجـع "جـابر" لعائلتـه وأخـبر "سـميرة" بمـا رآه وكانـت مسـرورة لسـماع ذلـك، ثـم انتقلـوا إليـه وودعـت "سـميرة" وأختهـا وشـكرتها عـلى حسـن الاسـتقبال، وصـلوا إلى المـنزل ودخلـت سـميرة، في بدايـة الأمـر خافـت لمـا رأت الشـارع يعـج بـالفقراء والمتسـولين لكـن المكـان الـذي كـان يوجـد فيـه البيـت كـان بعيـدا نوعـا مـا عـن هـؤلاء، وأعجبـت بالبيـت في الأخير.

***

ثـم مبـاشرة بـدأت بـالتنظيف هي وبناتهـا الصـغار وخـرج جـابر ليشـتري بعـض المسـتلزمات وتـركهم بينمـا تكمـل سميرة وبناته شغل البيت الجديد.

وكـان البيـت الجديـد يبعـد عـن مكـان عملـه وهـذا مـا أزعـج جـابر، لكـن طلـب مـن البلديـة أن تنقلـه إلى تلـك المدينـة وهـذا مـا كـان تـم نقلـه إلى هنـاك وبـاشر العمـل مع مجموعة جديدة من الناس.

ومـرت حـوالي أسـبوعين مـن انتقـال جـابر إلى بيتـه الجديـد وحياتـه الجديـدة، وكـان الشـهر الثـاني مـن العطلـة الصـيفية الطويلـة، وفي تلـك الأثنـاء وبينمـا كانـت "ربـا" تلعـب بالـدب مـع أختهـا تلاحـظ وجـود ثقـب خلـف الدميـة وبعـض الصـوف خارجـا منهـا أسرعـت إلى أمهـا لـكي ترقعهـا، وكانـت أمهـا مشـغولة بشـغل البيـت وأخبرتهـا أن تتركهـا فـوق السرـير بينمـا تنـتهي مـن شـغل البيـت وترقعهـا، وفي المسـاء وبينمـا جـابر يسـتلقي عـلى الأريكـة ويشـاهد التلفـاز مـع ابنتيـه يضـمهما إليـه، كانـت زوجتـه "سـميرة" في الغرفـة الأخـرى تهـم بالبـدء في ترقيـع الدميـة، وكانـت الفتحـة قـد توسـعت ثـم لاحظـت سميرة كأن شيئاً يلمع داخلها.

***

تعجبت! وتساءلت في نفسها: ثم وسعت الفتحة، وكانت هناك المفاجأة تسقط إحدى الرزم على الأرض وتحدث صوتا! استغربت وبدأت تخرج في الصوف الذي كان داخلها وهنا تلاحظ العديد من الرزم كانت ثمانية رزم ثقيلة أخرجتها كاملة مع الصوف وأصبحت الدمية فارغة، بعدها رفعت إحدى الرزم وفتحتها وما من فتحتها حتى صرخت بأعلى صوتها:

- ما هذا يا إلهي

ثم تفتح باقي الرزم الأخرى وتجد مجموعة من الأحجار الكريمة والمجوهرات والذهب لم تستوعب الأمر وراحت تقفز وتردد من الفرح:

- "أصبحنا أغنياء".. أصبحنا أغنياء... بين لية وضحاها.

وفي تلك اللحظة يسرع "جابرا" إليها بعد أن سمع صوتها، وهو يدخل إلى الغرفة يلمس بإحدى أصابع قدميه شيء ينظر إلى الأرض ليرى خاتماً مرصعاً بالألماس لم يصدق نزل للأرض ورفعه بأصابع يده وينظر إليه ويقول:

***

- ماهذا هل أنا في حلم!

بعدها نظر إلى زوجته سميرة وجدها مستلقية على السرير وترمي بيديها تلك المجوهرات للأعلى وتسقط عليها وكانت تعيد الكرة، والسعادة بادية على وجهها وتكرر:

- أصبحنا أثرياء أصبحنا أثرياء

وجابر متعجباً ولم يبد أي كلمة بعد، ثم يلاحظ أن دمية الدب مشقوقة من خلقها والصوف الذي كان داخلها مرمياً في أرض الغرفة، هناك تيقن أن تلك الدمية مصدر ذلك الرزق الكثير، بعدها خاطب زوجته:

- سميرة هل أنا أحلم أم جننت؟
- لا هذا ولا ذاك يا عزيزي، أنت في أتم عقلك
- ولكن ما كل هذا وكيف؟

بعدها شرحت له سميرة الأمر، ثم حدثها يجب أن لا تعلم البنات ذلك أنت تدري قد يفضحاننا ونصبح في شيء نحن عن غنى عنه، ثم تسائل جابر في نفسه ربما تلك الدمية الأخرى تحمل المجوهرات نفسها.

ولكـن لا يريـد أن يخربهـا لـكي لا تحـزن ابنتـه فـهي في الأخـــير هديـــة عيـــد ميلادهـــا ولا يريـــد أن يحطـــم سـعادتها، ثـم أخبرتـه سـميرة أن تتكفـل هي بالموضـوع وتجـد طريقـة لفـتح الدميـة الأخـرى، ثـم أصـلحت سـميرة الدميـة ذات اللـون البـني الـتي وجـدها جـابر ذات يـوم، وأعادتهـا مثـل مـا كانـت ثـم حملهـا جـابر وأعطهـا لابنتـه، لكـن هنـا جـابر لاحـظ أن وزنهـا أصـبح أخـف عـن مـا كـان، لـذا بـدأ الشـك يلعـب بجـابر وأن هـذه الدميـة تحمـل لغـزا، ثـم تـرك الموضـوع حـتى يتأكـد مـن الدميـة الأخرى.

وفي اليـــوم المـــوالي اســـتعملت ســـميرة خدعـــة وهي عنـدما كانـت ابنتهـا نائمـة اسرعـت وفتحـت فتحـة فيهـا لـكي تـأتي إليهـا ابنتهـا مـن أجـل ترقيعهـا، وهـذا مـا كـان فعـلا وبـذلك يكـون الأمـر قـد سـهل علـيهم، ثـم أغلقـت بـاب الغرفـة وكـان معهـا جـابر وشرعـت فاسـتخراج الصـوف بعـد أن فتحـت الدميـة، ولكـن لا شيء كانـت فارغـة لا يوجـد فيهـا إلا الصـوف، هنـا تـيقن جـابر وأن تلـك الـرزم لـم تـأتي مـع الدميـة مـن المصـنع إنمـا هنـاك من وضعها داخلها.

***

وكان هناك هاجس داخله وبعض الشكوك نحو ذلك الشخص قد يكون هو صاحب تلك المجوهرات لكن جابر لم يستطع أن يخبر زوجته بذلك، وكان يقول هي مجرد هواجس نفس فقط، الأهم هو أين أخفي كل هذه المجوهرات، حتى تذكر تلك الخرابة التي توجد خلف المنزل، ثم استقر على دفنها هناك في مكان محدد وكان تحت شجرة صغيرة، وأخبر زوجته أن هذه المجوهرات لن يتصرفوا بها حتى يتأكد لمن ترجع ومن صاحبها.

وفي الجهة المقابلة كان "إل كابو" في قمة الغضب كان يُدور عن تلك الدمية التي ضاعت منه ويبحث عنها في كل مكان ولم يجدها، ويعود ذلك كله بعد أن هُجم منزله على حين غرة من قبل عصابة خطيرة أخرى وفيما كان الحراس منشغلين مع هؤلاء العصابة كان "إل كابو" قد أعد من قبل خطة في حالة مداهمة ذلك المكان أن يخبئ بعض المجوهرات والأحجار الكريمة داخل بعض الدمى ليسهل حملها، ومن بينها كانت دمية الدب البني اللون.

***

وفي ذلك اليوم وبينما هو يهرب مع ابنته من الباب الخلفي كانت تحمل ابنته تلك الدمية مع دمية أخرى أمرها أن تترك الحارس يحملها لكن أبت عن ذلك، وفي طريقها إلى السيارة تسقط منها تلك الدمية، وكانوا في عجلة من أمرهم وحاولت أن ترجع إلى الدمية، حتى ينهال عليهم وابل من الرصاص من أحد عناصر العصابة الأخرى هنا "إل كابو" خاف على ابنته وأمرها أن تعود وتتركها في مكانها.

وفعلا نجا "إل كابو" وابنته بأعجوبة بعد أن تدخل حارسه الشخصي- وقتل ذلك الشخص، بعدها أراد أن يسترجع تلك الدمية أولا لأن ابنته كانت تبكي وتريد أن ترجعها وثانية لأن فيها بعض المجوهرات التي كانت داخلها.

ومن ثم يكون الآن "جابر" في خطر محدق إذا اكتشفت العصابة أمره، كيف لا وهو الذي تعرض للضرب من زعيمها قبل ذلك وأراد أن يتحداه أمام حراسه.

***

بعد البحث توصل "إل كابو" على أن الدمية لا توجد لدى العصابة الأخرى، وذلك بعد أن اخترقها من الداخل بوضع أحد جواسيسه هناك، أوصل له رسالة مفادها أن: "البيت نظيف ولا وجود إلى أي غبار"، كانت رسالة قد فهم فحواها "إل كابو"، هنا الأمر خرج عن حده وبدا "إل كابو" متوترا جدا، في غضون ذلك يقبل عليه خادمه الشخصي ـ والوفي وذراعه الأيمن "مناع"،وتوصل إلى أنه ربما وجدها عمال النظافة بعد الحادثة وأخذها أحدهم، هنا تذكر "إل كابو "عاملي نظافة صادفهما مرتين أمام بوابة منزله الأمامية، يعني كلام "مناع" فيه روح، ورد عليه "إل كابو":

- يا "مانوتشو" يبدو أنك وجدتها أتذكر قبل أيام عاملي نظافة كانوا ينظفون أمام بيتي وأدبتهم آنذاك لأنهم تطاولوا عليه، صحيح ربما أحدهم أخذها فهم في الأخير "زبالين" يلتقطون كل شيء، وكان يضحك استهتارا منهم.

***

وكان "إل كابو" يحب كل ما هو إيطالي ويتشبه بهم إلى حد الجنون حتى أطلق على اسمه "إل كابو" والتي تعني الزعيم باللغة الإيطالية، وكان اسمه الحقيقة مجهولاً حتى لأتباعه، كان من أخطر عصابات المافيا في البلد، يتاجر بالمجوهرات وباقي المعادن النفيسة كالذهب.

تزوج بامرأة إيطالية وكان يحبها جدا أنجبت له بنت أسماها "ليلى" على اسم والدته وتعلق بها كثيرا وكانت "ليلى" تحمل ملامح أمها الإيطالية وقد أحبها "إل كابو" كثيرا.

كان يشتري لها ما تريد وكل ما تتطلبه.

يتناول "إل كابو" طعامه على طاولة كبيرة كأنه في عصر القرون الوسطى وألزم الخدم على لباس معين، كما كان سكيرا وزير نساء بعد وفاة زوجته، وحبه الشديد لزوجته وخوفا على ابنته لم يتزوج بعدها. ويجيد اللغة الإيطالية بطلاقة، ويستعمله بعضها في حياته اليومية.

كان له طباخ خاص وأكلته المفضلة كانت فطيرة الموتزاريلا Mozzarella بالرغم من بساطتها إلا أنه تعلق بها كثيرا. عصابته تسمى:

***

العصـــابة الســـوداء (لابنـــدا نـــيرا La banda nera) نسـبة للباسـهم وأعمـالهم السـوداء جـراء عمليـات القتـل والسطو.

ثــم شرع مســاعده في البحــث عــن هــؤلاء وتوصــل إلى مكان إقامـة "أدهـم" وسـائق الشـاحنة سـعيد كما توصـل إلى بيـت جـابر ولكـن كان قـد هـدم مـن قبـل السـلطات، بعـدها بـدأ التحـري مـع السـائق وتبـين أنـه مجـرد سـائق يحمـل النفايـات ويكـب بقاياهـا في المحرقـة المخصصـة لذلك ولا دخل له في حملها ولا تنظيف الأرضية.

ثـم أطلقـوا صراحـه وهـددوه بـأن لا يـذكر سـيرتهم وإلا كـان مصـيره المـوت، ثـم انتقلـوا بعـد ذلـك إلى "أدهـم" وأتـوا بـه إلى "إل كابو"، وعنـد رأيتـه تـذكره وكان "أدهـم" مكبــل اليــدين والشــريط اللاصــق عــلى فمــه وكــيس قمامــة أســود يغــطي وجهــه، ثــم أشــاحوا عنــه ذلــك الكـيس ويـرى "إل كابو" جالسـا أمامـه عـلى أريكـة فخمـة ويــدخن كالعــادة، واضــع أحــد رجليــه عــلى الأخــرى وينطق:

***

- أيها الحيوان أين الدمية تكلم؟

كان يتعلثم

- و... ووو ل... ك.

لـم يسـتطع أن يضـبط كلمـة واحـدة مـن الرعشـة والخـوف ممـا رآه مـن قبـل ومـا تـراه عينـاه الآن محـاط برجـال يحملـون الأسـلحة والقسـوة شـعارها، وفي تلـك اللحظـات يـدفع بإحـدى قدميـه ويركلـه، ويخاطبـه ثانية:

- أين الدمية، بدأ صبري ينفد
- أقسـم أنـني لا أدري يـا سـيدي عـن مـاذا تتحـدث لم أرَ أي دمية
- يبدو أنك تريد أن تأتي بأجلك أيها الخسيس
- صـدقني يـا سـيدي لا أدري عـن أي دميـة فأنـا لـم أجد أي دمية مؤخرا

وفي تلـك الأجـواء اقـترب "منـاع" مـن سـيده وهمـس لـه وكانت تلك الكلمات:

***

- سـيدي بعـد إذنـك يبـدو مـن خـبرتي أن الرجـل يقـول الحقيقـة لا تنسى- لا يـزال هنـاك شـخص آخـر ربما الدمية تكـون معـه، لـذا الأمـر عنـدك يـا إما تخلي سبيله يا .....

وهناك قاطعه قائلا:

- بـل سـيكون عبـارة عـن رسـالة أرسـلها إلى صـديقه إن تبـين أن الدميـة معـه وأراد أن يهـرب أو يلعب معنا.
- مثل ما تريد يا سيدي أوامرك دائما تنفذ.

وفي تلـك الأثنـاء يخـرج "إل كـابو" مسدسـه ويصـوبه عـلى أدهـم، وكـان أدهـم المسـكين يترجـاه وأن لـه عائلـة لكـن بـلا جـدوى، وقُتِـل برصاصـة واحـدة اخترقـت جمجمته، وخاطب "إل كابو" بعدها خدامه:

- ارمـوا بهـذه القمامـة للخـارج لا أريـد أن أشـتم رائحته العفنة.

ثـم حمـل الحـراس جثـة "أدهـم" ووضـعوها أمـام إحـدى الحاويـات رسـالة مـن "إل كـابو" إلى مـن أخـذ الدميـة ويكـون مصـير كـل واحـد يلعـب مـع "إل كـابو" يلـقى المصير نفسه.

***

6

وفي ذلك اليوم اتصل جابر بصديقه أدهم يسأله عن حالته لأنه اشتاق إليه، ومنذ انتقل إلى بيت أخته لم يلتقِ به، ولكن كان خط هاتفه خارج التغطية، لذا قرر أن يزوره في بيته.

واتجه جابر إلى بيت أدهم وهو في طريقه حتى يرى كيسا أسود كبيراً مرمياً أمام إحدى الحاويات والدماء حوله تعجب جابر من الأمر نظر حوله ووجد الناس تشير بأصابعها هناك حتى يسمع صوت سيارة الشرطة قادمة إلى ذلك المكان.

هناك انتاب جابر الفضول وأراد أن يعرف ما الذي يجري، وكان المكان قريباً جدا من بيت صديقه، أسرع من وتيرة مشيه حتى يصل إلى هناك ويرى ذلك المشهد وصرخ: قائلا أدهم صديقي أدهم وجثى على ركبتيه ويبكي لهول المشهد، بعد ذلك أبعداه عنصرين من رجال الشرطة، وبدأ يحققان معه، ثم بعد ذلك أُخلي سبيله.

وفي ذلك اليوم اتصل جابر بصديقه الآخر سعيد، وأخبره:

***

- سعيد أسمعت بالخبر؟
- نعم سمعت

وكانت نبرة الحزن بادية على جابر لأنه كان صديق أدهم الوحيد وإذا احتاج منه بعض المال يعطيه، عكس سعيد سائق الشاحنة التي كانت علاقتهما سطحية

- أدهم ما بك؟
- أتمزح بي يا سعيد تسألني ما بي لقد قتل زميلنا وصديقي بدم بارد وترك خلفه أسرة، من عساه يفعل ذلك من؟

وكان جابر يبكي بحرقة عند تلفظ تلك الكلمات

هنا رد عليه سعيد: أن عليه قفل الخط، ولاحظ جابر ذلك ورد عليه:

- لما ...

ولم يكمل حديثه حتى أغلق الخط في وجهه، وحاول جابر أن يتصل به مجدداً بلا جدوى لا يرد على مكالماته، حتى أغلق هاتفه تماما، وهنا انتبه جابر على أن هناك أمر ما، ثم راح يحدث نفسه:

***

- ربما سعيد قتله! لهذا أغلق الخط

ثم يجيب نفسه:

- لا لا أظن سعيد لا يفعلها، ولكنه يخفي عني أمرا، وهذا ما يجب علي معرفته.

بعدها اتجه جابر إلى منزل سعيد سائق الشاحنة، وأراد أن يعرف عنه ما يخفيه لكن سعيد كان يماطل في الأمر ويحدثه على أن كل شيء على ما يرام ولا يوجد شيء، وجابر يحاول معه حتى يعترف له بالحقيقة، ثم بكى سعيد هو الآخر ليس حزننا على صديقه وزميله في العمل بل خوفا على نفسه، خاطبه جابر:

- ما بك ما الذي تعرفه أخبرني
- حسنا حسنا

بعدها مسح سعيد دموعه وأخبره:

- قبل أيام أتوا الي افراد تلك العصابة التي حدثتك سابقا عليها عصابة ذلك الرجل الذي اخبرتك عنه، الذي كنا نعتقده رجلا ثريا وعاديا عندما أعطانا تلك الفطيرة
- نعم أكمل

***

- لقـــد تعرضـــوا إلي وســـألوني عـــن دميـــة ووصـفوها لي وأنـا لـم أجـد أي دميـة أنـت تعلـم طبيعـة عملـي يـا جـابر أنـا مجـرد سـائق ولا دخـــل لي بأكيـــاس القمامـــة ولا بالـــذي يوجـــد داخلهـــا، أخـــبرتهم بـــذلك وأطلقـــوا صراحي وهـــددوني إذا بُحـــتُ بهـــذا الكـــلام لأحـــد وخصوصـــا الشرـــطة ينهـــون حيـــاتي، هـــذه هي يـــا جـــابر، وأنـــا خـــائف حاليـــا ولا أدري ما أفعل.
- يا إلهي أحدث كل هذا؟، مجرد دمية؟

هنـا جـابر حـاول أن يجـاري كـلام صـديقه لـكي لا ينتبـه لـه ولكـن كان يـرتعش مـن سـماع تلـك الكلمـات ويحاول أن يخفي الأمر، بعدها رد عليه سعيد

- ومـا يـدريني يـا جـابر تلـك العصـابة لا تعـرف الرحمـة، وأنـا أظـن أن الـدور قـادم إليـك لـذا احـــذر "وإن اســـتطعت أن تنفـــذ بجناحيـــك فنفذ منهم"

***

- صحيح شكرا لك يا سعيد وأنت أيضا إياك أن تخبر هذا عنهم حتى رجال الأمن سيحققون معك وحاول أن لا يخرجون منك شيء وإياك أن تحسسهم بشيء فهم محترفون بإخراج الحقيقة منك.
- نعم اعلم ذلك اعلم
- مع السلامة سعيد إلى لقاء آخر
- جابر لم تخبرني أين أنت تعيش الآن؟
- سامحني يا سعيد لا أستطيع إخبارك أين أنا لا تدري قد يهددونك ويسألونك عني تلك العصابة لذا الأفضل لك أن لا تعرف مكاني.
- صحيح معك حق

بعدها استقل جابر حافلة وعاد أدراجه إلى المنزل وهو هائم ويفكر بالمصيبة التي وقع فيها ويردد في نفسه: ما الذي عملت بحياتي، لا أريد أن يصيب أي مكروه عائلتي يكفيها ما تعاني من الفقر، لابد أن أحميها مهما كان الثمن، ثم وصل جابر للبيت وأخفى ملامح الحزن والحيرة على زوجته وبناته. فالأمر خطير ولا يريد أن يعكر مزاجهم وحمل العبء كل وحده.

***

وفي تلــك الليلــة وكالعــادة مســتلقيا في سريــره، لــم يقــدر عــلى النــوم كــان يفكــر، ثــم تــذكر أن العصــابة لــلآن لــم تصــل إليــه وذلــك راجــع إلى تهــديم بيتــه الســابق، ولا بــد لــه أن يتــوارى عــن الأنظــار خصوصــا أنه تشابك معهم من قبل.

وهكــذا اســتمرت حياتــه مليئــة بــالخطر والخــوف مــن تلــك العصــابة الخطــيرة، وفي أحــد الأيــام يعــود إلى البيــت بعــد أن أنــهى عملــه، أخبرتــه ســميرة أن يسـمح لهـا بأخـذ البنـات لتشـتري لهـم بعـض الألبسـة للــدخول المــدرسي القــادم، ووافــق جــابر عــلى هــذا الأمــر وأعطاهــا بعــض المــال، وكــان هنــاك ســوق قريـب مـن تلـك المدينـة خـاص بالنسـاء فقـط لـذا لـم يمــانع جــابر، كمــا أخبرهــا أن لا يتــأخرن هنــاك وأن ينتظــروه عنــد مــدخل الســوق ليعــودوا معــا بعــد أن ينتهي جابر من عمله.

كمــا أرادت "ربــا" تغــير القمــاش لــذلك الــدب لأن اللـون البـني لـم يعـد يعجبهـا وأرادت تغـيره بلونـا آخـر هنــا، ولأول مــرة يصرــخ جــابر عــلى ابنتــه وكــان الجميع في صدمة.

***

بعـدها احتمـت البنـت خلـف أمهـا وكانـت تـبكي، و"سـميرة" لـم يعجبهـا الأمـر وحاولـت معرفـة مـا الـذي يجـري لكـن "جـابر" كـان مصرا أن يخـفي عليهم حقيقة الأمر.

بعـدها هـدأت أعصـاب جـابر، ثـم لام حالـه عـلى مـا حـدث وكلـم نفسـه: ربمـا بالغـت في الأمـر إضـافة إلى ذلـك مـرت أيـام ولـم يحـدث شيء يبـدو أن العصـابة تعبـوا مـن البحـث، بعـدها ابتسـم ونـادى عـلى "ربـا" وسـمح لهـا بأخـذ الدميـة وتغـير ذلـك اللـون، وفرحـت لسماع ذلك.

وفي اليـوم المـوالي أخـذت "سـميرة" البنتـين واتجهـت صـوب ذلـك السـوق لاقتنـاء بعـض الملابـس لهمـا، وأخـذت "ربـا" معهـا الدميـة ربمـا تجـد مـن يغـير لهـا ذلـك القمـاش، ولكـن بـلا جـدوى لـم يجـدوا أي شـخص يغـير لـون ذلـك القمـاش لهـا، وفي العـودة اتصـلت زوجـة جـابر بـه وذهـب إلـيهم وعنـد خـروجهم مـن السـوق، كانـت سـيارة سـوداء تسير في الطريق وداخلها إبنة ذلك الزعيم.

***

تلاحظ فتاة تحمل نفس دميتها على شكل دب، وهناك صاحت "ليلى": أورسو أورسو، وخاطبها : ما الذي يحدث ما الخطب، وردت عليه لعبتي أورسو هناك وأشارت على "ربا" التي كانت تحضن تلك اللعبة وتمشي- مع عائلتها، نظر إليهم السائق وتيقن أنها الدمية حقيقة، وفي تلك الزحمة، غير السائق الطريق وكان يمشي- خلف عائلة جابر ليعرف مكان إقامتها، وبالفعل عرف المكان وكان في حي فقير يعج بالمتسولين والعصابات.

كما كان هناك أمر من "إل كابو" بالبحث عن تلك اللعبة، بعدها أُخبر بما جرى وبحث في الأمر ووجد أنه مع عائلة فقيرة يطلق عليها بعائلة "الزبال" نكاية في جابر رجل النظافة الشريف (آنذاك)، وهو نفس الشخص الثالث الذي كان يبحث عنه ومن ثم اكتملت الصورة ولا بد له أن يدفع ثمن ذلك.

***

7

بعـد أن علمـت العصـابة مكـان وجـود عائلـة جـابر تسـللت لهنـاك مـن أجـل خطـف جـابر والبحـث عـن المجـوهرات، وهـذا مـا كان، وفي النهـار اسـتغلت العصـابة غيـاب جـابر عـن البيـت واقتحمـوا البيـت ولـم يكـن هنـاك إلا زوجتـه سـميرة وابنتــه "ربــا"، وتــم الاختطــاف و البحــث عــن الدميــة ووجــدوا دميتــين أخــذوهما معهــم لعــل وعسى تكــون تحتـوي عـلى بعـض المجـوهرات، ونكثـوا البيـت وخربـوه لكـن لـم يجـدوا شـيئا، بعـدها خُطِفـت الزوجـة والبنـت وتركوا له ورقم موضوعة داخل منزله فوق طاولة.

وكانـت آخـر كلمـة مكتـوب فيهـا: "لابـدا نـيرا" يعـني عصـابة "إل كابو".

رجـع جـابر مـع ابنتـه "مهـا" والـتي كانـت تعـاني بعـض الآلام وجـراء ذلـك أخـذها للطبيـب، ومـا إن وصـل جـابر للمـنزل حـتى يجـد البيـت مخربـا وعلـم أن ذلـك مـن صـنع ذلـك الرجـل، وكانـت الصـدمة أكـثر عنـدما لـم يجـد زوجتـه وبـدأ يصرخ وينادي:

***

- "سـميرة" "ربـا" أيـن أنتمـا؟ ويـدور ويبحـث لا شيء في الأخير كان منزل صغير

وفي تلـك الأثنـاء نادتـه "مهـا" وشـدت بنطالونـه (حركـة لـكي ينظر إليها)، وخاطبته:

- أبي أبي أنظر ماذا وجدت!

نظـر إليهـا ووجـدها تحمـل قصاصـة مـن ورق صـغيرة سـوداء اللـون مكتوبـة بـاللون الأحمـر وبـالخط العـريض: اتصـل بهـذا الـرقم إن أردت سـلامة عائلتـك بعـدها مكتـوب عبـارة: "لابندا نيرا".

بعـدها أُخِـذت الـرهنتين والـدميتين إلى رئـيس العصـابة، وبعـد وصـولهم أعطـوه الـدميتين ثـم فـتش "إل كـابو" بيديـه وقطـع تلـك الـدميتين فلـم يجـد شـيئاً ورمى بهـا في الأرض وقام يصرخ:

- ما هذا أيها الحمقى أين تلك المجوهرات أين؟

(نـبرة غضـب وعصـبية، كمـا كـان يعلـو وجهـه لـون الحمـرة مـن شـدة الغضـب و كانـت عروقـه بـارزة)، ثـم خاطبـه رئـيس الحرس والخدم "مناع":

***

- اهـدأ يـا سـيدي رجـاء أهـدأ لـم يفـت الوقـت بعـد، توجـد لـدينا ورقـة رابحـة بـين يـدينا سيتصـل بنـا أعلـم يقينا ذلك، فهو متعلق كثيرا بعائلته

بعدها هدأ "إل كابو" وقال بنبرة حزينة:

- تعلـم يـا "مانوتشـو" إن تلـك المجـوهرات لا تعنيـني فأنا لدي ما يغنيني عنها أنت تعلم ما أريده
- نعـم سـيدي أعلـم تقصـد خـاتم زوجتـك الـذي اهديته لها يوم زفافك.

بعدها اتصل "جابر" على الرقم :

- ألو ألو مرحبا مرحبا

عـم الصـمت لـم يـرد أحـد عليـه...، فجـأة يسـمع صـوت بكاء كل مـن زوجتـه وابنتـه "ربـا"، هنـاك لـم يتمالـك نفسـه وراح يمشي إياب رجوع ويشد في شعره ويبكي كذلك

- حبيبتي على أنتِ بخير؟ سميرة اتسمعينني؟
- آ أنتما بخير؟ ردا علي رجاء

بعـدها انقطـع الصـوت، حـتى يسـمع صـوت يعرفـه، إنـه "إل كابو"

***

- يبدو لي أنك تذكرت صوتي الآن
- ماذا تريد مني؟ ألم يكفيك ما حدث لنا ذلك اليوم
- لا لا لا لا الأمر لا يتعلق بذلك، أنت تعلم على ما أبحث
- أقسم أنني لا أعلم عن ماذا تتحدث!

بعد ذلك يسمع صوت زوجته تقول: يبحث عن المجوهرات يا جابر، ثم يخاطبه:

- اسمعت يبدو أن زوجتك ذكية

قاطعه جابر حسنا حسنا ستكون عندك اليوم، ولكن عدني أنك لا تؤذي عائلتني رجاء فهم لا دخل لهم.

- إن كنت تريد أن تعود عائلتك أحظر تلك المجوهرات كاملة وخصوصا ذلك الخاتم الذي يحمل ماسة زرقاء اللون إياك أن ينقص شيء خاصة الخاتم وإلا لن ترى عائلتك مجددا وأنا "إل كابو" إذا حدثت فعلت فإياك أن تلعب معي وتخبر الشرطة، فأقسم أنك لن ترى الضوء مجددا وتشتاق إليه.

***

- سأفعل سأفعل

وكان جابر يبكي آنذاك ويضم ابنته الأخرى، ويتكلم في الوقت نفسه، بعدها حدد له "إل كابو" المكان والذي كان عبارة عن مستودع على أطراف منطقة نائية وأعطاه مهلة 24 ساعة، وإذا تأخر دقيقة واحدة لن يجدهما إلا جثتين.

ثم حمل جابر ابنته "مها" ووضعها عند خالتها ونوه على أن لا تدع تخرج من هنا حتى يعود، وحاولت أن تعرف ما الذي يجري لكن دون جدوى، كما نوه جابر إبنته أن لا تجلب أي سيرة بالموضوع وإلا قتلت أختها وأمها فخافت وفعلت ما أمرها أبوها.

وقبل ساعة من زمان وبينما جابر يستعد للمغادرة، حتى يسمع دقات على الباب، تعجب من يكون يا ترى، وتساءل في نفسه ربما زوجته؟ لا لا، ثم صرف الفكرة وذهب ليفتح الباب وما إن فتحها حتى يرى أمامه رجلا طويلا ضخما ينهال عليه ضربا دون سابق إنذار ويسقطه أرضا ويحاول جابر أن يخلص نفسه منه لكن لم ينفع ذلك كان أشد قوة منه.

***

كما أنه بُوغِت عن حين غفلة، وهو كذلك... حتى أصبح يشعر بالدوار وكان مستلقياً على الأرض والشخص جالس فوقه ينهال عليه ضربا (يمينا وشمالا)، في تلك الحالة كانت يداه مبسوطتين في الأرض ورفع إحدى يديه يتحسس شيئا حتى ترتطم يده بشيء كأنه قضيب معدني رفعه وبدأ يضرب الرجل في رأسه حتى أسقطه على الأرض ثم انقلب عليه يضرب ويضرب حتى امتلئ المكان بالدماء وخارت قواه وسقط إلى جانبه وهو يلهث من التعب والضرب والمجهود الذي بذله، وفي تلك اللحظة أغمض عينيه ولم يستطع أن يقوم، وأغمي .

بعد برهة من الزمن بدأ يسترجع في وعيه وينظر حوله يجد ذلك الرجل مرميا أمامه جثة هامدة، في ذلك الحين تذكر موعده مع "إل كابو" وأن عائلته في خطر.

حاول ينهض لم يستطع في بداية الأمر كان الألم يسيطر عليه والجروح تعم وجهه وجسمه، ثم قام بصعوبة واستعان بأحد الكراسي التي كانت أمامه ثم جلس وأخرج جواله ليرى كم تشير الساعة ليجد أن الوقت لم يتبق إلا 15 دقيقة، هناك أنهار وبدأ يصرخ ويضرب يده برأسه .

***

بعـدها حـاول أن يتصـل بالشـخص لكـن كـان الخـط خارجـا عــن التغطيــة، ثــم تشــجع واغتســل مسرـعا، وحــاول أن ينظـف المكان نظفـه قلـيلا بعـد ذلـك سـحب ذلـك الرجـل إلى الحمــام وتركــه هنــاك، وغــادر بيتــه مسرـعا واســتقل سـيارة أجـرة، وفي طريقـه تـوجس منـه السـائق، ونظـر إليـه وقال:

- لســت وحشــا لا تخــف، ولا تغــادر المكــان حــتى نرجع سويا. وسأعطيك ثمنا لائقا مقابل ذلك.
- حسنا يا سيدي ولكن لا تتأخر كثيرا
- قلت لك: أنني سأدفع لك مبلغا يكفيك لأسبوع

وقـد أخـذ معـه جـابر المـال كلـه الـذي كـان في بيتـه لـم يـدرِ مـا قـد يصـادفه في هـذه الرحلـة الخطـيرة صـحيح لـم يكـن مبلغ كبيرا لكن كان قد استلم من أخته ما يكفيه.

ثـم وهــو في الطريــق يلاحــظ المســتودع الــذي وصــف لــه ذلــك الرجــل وكــان ينطبــق عليــه تمامــا ، أمــر الســائق أن يسرـع فـأسرع بعـدها أخـبره أن يتوقـف بعيـدا عنـه حـوالي العشرـ أمتـار، وهـذا مـا كـان نـزل جـابر وكـان متـأخراً مقـدار 45 دقيقــة ويــدعو في نفســه أن لا يكــون قــد حــدث شيء لعائلته.

***

بعـدها نـزل مـن السـيارة مسرـعا وارتـدى حقيبتـه الـتي كانـت مملـؤة بـالمجوهرات والـذهب، وكـان يمشي- والألـم لـم يغـادره وأحضر- معـه عصـا لتسـاعده عـلى المشي- وكـان يتكئ عليها حتى وصل للمكان.

ودخـل المسـتودع وكـان خاليـاً ويعـم الصـمت فيـه وكـان يمشي- وهـو خـائف وينظـر مـن حولـه بعـدها رفـع هاتفـه واتصل لكن لا شيء، خارج نطاق العمل.

ثـم اسـتمر يمشي- وكانـت الإضـاءة سـيئة الأنـوار تشـتعل حينـا وتـنطفئ حينـا آخـر وهـو يمشي- وينظـر مـن حولـه حـتى يصـل إلى عمـود في وسـط المبـنى ويـرى كـأن هنـاك تحتـه شيء، ويتقـدم بـبطء حـتى يصـل إليـه ثـم فجـأة ينـير مصباحا كان في أعلى ذلك العمود.

وهنـاك يـرى مـا لـم يكـن يريـده كانـت زوجتـه وابنتـه مربوطتـان بحبـل والـدماء مـن حولهمـا، تلـك اللحظـة سـقط جـابر عـلى ركبتيـه مـذعورا ويرفـع يديـه ويمسـك بهـا زوجتـه ويحـاول أن يـيقظهـا وينـادي عليهـا ويصرـخ ويـبكي لكـن بـلا جـدوى، ثـم ينظـر إلى إبنتـه ويراهـا غارقـة في بركـة مـن الـدماء ورصاصـة تخـترق رأسـها الصـغير، ثـم يـبكي بحرقة ويضمها إليه ويعانقهما ويصرخ بأعلى صوته :

***

- أقسم أنني سأقتلك أقسم لك ذلك، ما ذنبهما ما ذنبهما لو انتظرت قليلا ماذا في ذلك ماذا ...

وهو يبكي ومحطم وبدأ يضرب رأسه بذلك العمود ويضرب حتى أصيب بالدوار، وبينما هو يترنح حتى يسمع صوت ديك!، هناك نظر جابر ليرى ما الذي يحدث وكان خارج المبنى "ديكاً" يصيح ويقفز وجابر ينظر إليه ويتساءل ما به هو الآخر؟

حتى يبصر جابر أن أمامه "دجاجة" ميتة! هنا جابر حاول بعصاه أن يقف، وبمعاناة كبيرة حتى وقف وبدأ يمشي ويتمايل إلى أن وصل لزاوية قريبة من المشهد.

تفاجئ مما رأته عيناه كانت "دجاجة" مرمية جنب "الديك و الصيصيان" خلفه وهناك "حية" تريد أن تنقض عليهم جميعا، لكن كان ذلك "الديك" بالمرصاد يقفز ويحاول أن ينقرها ويريد أن يبعدها عن صيصانه حتى غادرت تلك "الحية"، هنا حدث جابر نفسه قائلا:

***

- "طائر له جناحان ولا يطير ! يحاول بكل جهده أن يحمي أهله من عدوه، ماذا لو كانت تلك الأجنحة تطير!، أكان له أن يطير ويترك خلفه صيصانه؟ لا لا أعتقد ذلك أظن أنها غريزة الحيوان تمنعه عن ذلك"، ثم واصل يخاطب حاله:
- "أهذا الديك أفضل منك يا جابر؟ استطاع أن يتغلب على عدوه وينقذ صيصانه، ولكن بالرغم من ذلك إلا أن دجاجته قد لقت حتفها أيضا وبالتالي هو يشبهني قليلا"!

بعدها عاد جابر أدراجه وأقسم في نفسه أن لا يسامح ذلك الشخص وأن لن يأخذ شيئا من تلك المجوهرات، صحيح هي لا تعوض ما خسره لكن كان في قرارات نفسه لا بد له من تلك المجوهرات لكي يبني انتقامه عليها، ثم رجع إلى السائق وأخبره أن يأخذه للمدينة تسائل السائق لما، فكان رد جابر أن لا يسأل كثيرا.

ثم أحضر جابر معولا ومجرفة، استغرب السائق ما يحدث أمامه بعدها عاد جابر إلى ذلك المستودع وأخبره أن يذهب وعند الإتصال به يعود إليه وعندئذ يدفع له، في البداية تردد السائق ثم تراجع ووافق.

***

أخـرج جـابر أدوات الحفـر وذهـب يمشي- بصـعوبة وكـان يفكـر كيـف سـيحفر وهـو بهـذه الحالـة، لكـن في النهايـة لـم يجـد إلا أن يحفـر ويخـفي جثـة زوجتـه وابنتـه، ثـم وصـل إلى مكانهمـا وأزاح نـاظره عنهمـا لـكي لا يـبكي وتسـيطر عليـه العاطفة.

ثـم واصـل سـيره ووجـد خلـف المسـتودع تربـة هنـاك بـدأ يحفـر... وهكـذا اسـتمر بـالحفر تـارة وبـالتوقف تـارة أخـرى ليرتـاح حـتى مـرت قرابـة الـثلاث سـاعات وهـو يحفـر حفـرة كبـيرة ليضـع فيهـا زوجتـه وابنتـه "ربـا"، حيـث حفـر قـبرين وهو بتلك الحالة استغرق وقتا كثيرا.

كمـا أراد إخفـاء كـل الـدلائل مـادام يريـد الثـأر مـن ذلـك الشـخص، خصوصـا إذا علمـت الشـرطة سـتتهمه بقتلهمـا لـذا حـاول أن يخـوض مـن هـذا اليـوم معركتـه وحـده ولا بد له أن يحمي "مها" مهما تتطلب الأمر.

وهكـذا إلى أن انـتهى مـن تلـك الحفـرة بعـدها ذهـب لمكـان وجـود زوجتهـا وابنتـه ومـا مـن رآهمـا حـتى بـكى كثـيرا، ثـم تشـجع وفـك رباطهمـا وسـحب زوجتـه أولا ووضـعها في الحفـرة، بعـدها أتى دور ابنتـه "ربـا"، وهنـا لـم يتمالـك نفسه مجدداً وضمها إليه ضمة شديدة ويصرخ قائلا:

***

- مـن يـداوي جـروحي وآلامي بعـد اليـوم ألـم تخبريـني ذاك اليـوم أنـك ستصـبحين طبيبـة؟ آه وكـان يـبكي بحرقـة، بعـد ذلـك قبلهـا ومسـح دموعـه ووضـعها مـع أمهـا، وشرع يـرمي الـتراب حـتى حجبهمـا عنـه، بعـدها وضـع إشـارة لـكي يتعـرف عليهمـا وغـادر ذلك المكان.

اتصـل مـرة أخـرى بالسـائق وأخـبره أن يـأتي حـالا، وقبـل أن يـأتي بحـث جـابر داخـل حقيبتـه بعـض "الصـاغة" وكـان مـن بينهـا ذلـك الخـاتم يحمـل ماسـة زرقـاء الـذي أخـبره عليـه "إل كابو" هنـا نظـر نظـرة إليـه وخاطبـه: كل هـذا مـن أجلك ومد يده ليرميه ثم أوقف يده وامتنع من رميه.

واسـتخرج خـاتم آخـر ذهـبي وكـان يبـدو عـلى أنـه بـاهظ الـثمن وأخفـاه في أحـد "جيـوب سروالـه"، بعـد برهـة يصـل السـائق وينـادي عليـه، وينطلـق جـابر مـن جديـد إلى بيتـه ولكـن كـان حـذرا، أراد أن يكمـل شيء ويغـادر بيـت اختـه ولـن يعـود إليـه مجـدد، ثـم وصـل إلى البيـت وقبـل أن يـنزل أخـرج مـن جيبـه ذلـك الخـاتم وأهـداه لـذلك السـائق وقال:

***

- هذا جزاؤك تستحق هذا

نظر الرجل متعجبا ومندهشا ولا يصدق ما تراه عيناه !

- ما هذا؟
- إنه خاتم كما ترى
- أعلم سيدي ولكن أنا لا أتعامل بالذهب أنا أتعامل بالعملة النقدية، إن لم يكن معك مال الآن لا عليك سآتي في وقت آخر بينما يتوفر لديك
- لا ... بل لدي المال...

وأخرج جابر بعضاً من الأوراق النقدية، وأراها ذلك السائق وتابع كلامه:

- أنا أتعامل بالذهب خذ هذا ولا تكثر الكلام وإن ناديتك واتصلت عليك تأتيني مسرعا
- أجل أجل يا سيدي شكرا شكرا

وكان الرجل فرحا جدا والسعادة ظاهرة عليه، وحدث نفسه:

***

- يبدو أن هذا الشخص بالرغم من مظهره إلا أنه ثري، في هذه الأيام لا يوجد شخص يعطيك خاتماً من ذهب وماذا فيه ألماس!، صدق المثل الذي يقول: "لا تحكم على الناس من مظاهرهم."

وقبل أن يغادر نوه السائق على أن لا يخبر أحدا بما حصل معه وإلا كان مصيره بشعاً، ورد عليه السائق وطمئنه، ثم نزل من السيارة ودخل بيته وكان ذلك الرجل لا يزال مستلقياً بعدها أحضر معه المعول والمجرفة اليدوية.

وذهب للخرابة والتي كانت بها تربة غير مبنية، تأكد جابر من أن لا أحد يراقبه وبدأ يحفر ليلا ويحاول أن لا يصدر الصوت وكانت التربة رطبة وهذا ما ساعده بعدها وضع ذلك الشخص داخل الحفرة.

ثم أكمل عمله وذهب ليغتسل ثم اغتسل وغير ثيابه، واتصل بأخت زوجته ليطمئن على ابنته، وكانت الأمور تسير على ما يرام لم تتعرض لأي مكروه هنا جابر تنفس الصعداء.

***

8

ومـن هنـا بـدأت مغـامرة جـابر الحقيقيـة مـع "إل كـابو" وعـزم عـلى معرفـة كـل شيء حولـه ومـن يكـون وكـل شيء متعلـق بـه، بعـدها اتصـل مجـددا بالسـائق الأجـرة ولـب النـداء مسرعا وأخـبره أن يأخـذه إلى فنـدق وهـذا مـا كان تـم أخذه إلى فندق.

وفي تلـك الليلـة لـم يـنم جـابر وكان يخطـط لـتخلص منـه، ولكـن كان أول عـائق أمامـه هـو ابنتـه "مهـا" لـم يجـد حـلاً واحـداً إلا أن يأخـذها إلى أختـه خـارج البلـد فهنـا الوضـع خطـــر جـــدا و"إل كـــابو" ذاك مـــا دام وصـــل إلى بيتـــه سيصل لما حال إلى بيت خالتها.

وفي ذلـك الغـد وبعـد مـرور يـوم مـن أبشـع الأيـام عـلى جابر، شرع في تنفيذ مخططاته

اتجـه صـوب أخـت زوجتـه وأحضر ابنتـه هنـاك وسـألته أخت زوجته"

***

- مـا الـذي يحـدث أيـن أخـتي ولمـا حالتـك هكـذا؟ اتشاجرت مع أحدهم؟

وكان وجه جابر تملئه الكدمات لهذا انتبهت له وسألته.

- نعـم تعرضـوا لنـا بعـض اللصـوص في أثنـاء عملنـا تكاثروا علينا
- حسـنا، ولكـن أيـن أخـتي لمـا لـم تـأتي أحـدث لهـا مكـروه لا قـدر الله مـن البارحـة وأنـا أتصـل لكـن لا أحد يرد؟
- آه نعـم، ذلـك اليـوم احتجـت إلى هاتفهـا وأخذتـه مـعي لـذا سُرِق مـني، أخـبرت الشرـطة بـذلك وهـم الآن يبحثـون عـن الفاعـل. لا لـم يحـدث شيء كـل مـا في الأمـر أنـني تشـاجرت معهـا جـراء ذلـك وتعاطفـت "ربـا" معهـا وتشـاجرت هي أيضـا مـع أختهـا لأنهـا حاولـت أن تـدافع عـني هـذا مـا حـدث لهذا أحضرتها إليك لكي لا يسوء الوضع.

واسـتغربت الأخـت وبـدأت تشـك في الأمـر، حـتى تكلمـت "مها:"

- صـحيح هـذا صـحيح يـا خـالتي كـل مـا قالـه أبي صحيح.

***

بعدها نظر إليها جابر وحدثها:

- أ رأيت الآن أنا لا أكذب
- أتمنى أن تكون أختي بخير وأرجو أن لا تكون قد ضربتها
- لا لم أفعل وإن لن تصديقني ها هي "مها" وسأليها بنفسك، كل ما حدث أننا تشاجرنا بالكلام لا غير.
- صحيح يا خالتي وهذا ما حدث
- حسنا حسنا، ولكن أخبرها أن تتصل بي.
- سأفعل، بالمناسبة آاااا....

وقاطعته:

- ما باك؟ لم تتلعثم؟
- في الحقيقة هناك أمر آخر، وهو أننا قررنا أن نسافر إلى أختي بعض الوقت"أختي" تعرفينها؟
- نعم أعرفها
- طلبت مني أن أحضر وأجلب معي البنات وزوجتي، لذا نحن مسافرون هذه الأيام وما من أصل للبيت حتى أخبرها أن تتصل بك.

ثم غادر بعدها جابر وأخذ ابنته وفي الطريق حاولت أن تعرف ما الذي يحدث ولما كذب على خالتها، وفي تلك اللحظة يتوقف جابر للحظات ويحضنها ويبكي ويقول:

***

- سامحيني يا ابنتي سامحيني

وتـبكي هي الأخـرى دون أن تعلـم بعـد مـا الـذي يجـري في الأخير تبقى طفلة

- مـاذا حصـل أبي؟ لمـا أنـت وحـدك ولمـا نحـن بعيدون عن البيت؟
- سـنغادر البلـد يـا ابنـتي تعهـدت مـع نفسي- عـلى أن أحميك...

وفي الأخير بدأت تستوعب "مها" الأمر وتتسآئل:

- أبي أحـدث مكـروه لأخـتي وأمي مـاذا فعلـوا هـؤلاء الأشخاص لهما؟

وينظر إليها ويبكي ويعانقها مجدداً ويردد:

- أنـا آسـف يـا صـغيرتي لـم أسـتطع مسـاعدتهم أقسـم أنـني فعلـت كـل شيء لكـن بـلا جـدوى قدرها سبق قدرتي.

هنـا لـم تتحمـل "مهـا" ذلـك وانهـارت بالبكـاء وتضرـبه وتحدثه في الوقت ذاته:

***

- أنت تكذب... أنت تكذب...
- يا ليتني أكذب... يا ااا ليت ...، أدري أن هذا

قاسِ عليك وأنك ما زلت صغيرة ولكن لا باليد حيلة اليوم أفضل من الغد فعندما تكبرين ستفهمين كل شيء.

وبعد ذلك مسح الدموع عن عينيه وعن عينيها ووعدها أن يحميها مهما كلفه الأمر، وأشار إليها بإحدى أصابه وحدثها قائلا:

- عيدنني أنك لن تخبر أي أحد بما جرى
- نظرت إليه ومدت إصبعها الصغير
- أعدك يا أبي أعدك

ونطقتها وهي "تشهق بالبكاء"

- وخصوصا عمتكِ إياك أن تخبريها بشيء حتى أخبرها أنا كل شيء سأتركِ تعيشين عندها حتى تكبري، هي حنونة وستحبك وتحبينها.
- وماذا عنك يا أبي؟ أتتركني وحدي؟
- لا يا ابنتي أعدك أن لا أتركك ولكن هناك شغلاً معيناً لا بد لي من فعله

***

- وما هذا الشغل يا ابي؟
- ســـتعرفينه عنـــدما تكـــبرين، ولكـــن الآن أفكـــر بـالهجرة مـن هـذا البلـد أولا بعـدها لكـل حـادث حديث.

بعـد ذلـك اتصـل جـابر بأختـه وأخبرهـا أنـه يريـد زيارتهـا لأمـر مسـتعجل، حاولـت أن تعـرف مـا هـو هـذا الأمـر لكـن أبى أن يخبرهـا حـتى يـأتي إليهـا فوافقـت وأخبرتـه أنهـا سترسل له الأوراق من أجل أن تكفيله هي وابنته.

إلى جانـب ذلـك طلـب جـواز سـفر إليـه ولابنتـه، وبعـد مـدة تـم اسـتخراج جـواز سـفرهما وغـادر البلـد إلى بريطانيـا الـتي كانـت أختـه هنـاك، واسـتقبلته بـين عائلتهـا وكانـت لهـا ابن وبنت.

وحاولـت أن تتعـرف عـن الـذي يحـدث فصـارحها بـذلك وأخبرهـا عـلى أنهـم تعرضـوا لحـادث هـو وعائلتـه وغـادرت كـل مـن زوجتـه و"ربـا" الحيـاة، لـذا طلـب منهـا أن تعتـني بابنتـه "مهـا" وأن الأوضـاع في البلـد متعسرـ نوعـا مـا مـن غـلاء المعيشـة كمـا أنـه لا يريـد أن يـتزوج وتـأتي امـرأة أخـرى وتسيء إلى ابنته.

***

وتلقت أخته الخبر بحزن شديد، ووافقت على الأمر، كما مكث هناك بضعة أيام وعاد إلى بلده، وقبل أن يغادر ودع ابنته "مها" ووعدها على أنه سيبقى على اتصال معها، وسيأتي بين الحين والآخر، ثم غادر.

وعاد جابر إلى بلده وهو يحمل الحقد الذي كان مدفوناً في أعماق قلبه، وبدأ يبحث عنه كان يعلم بعض المعلومات من صديقه سائق الشاحنة أنه رجل عصابات وعصابته تدعى بـ: "لابندا نيرا."

وبعد أن جمع المعلومات توصل إلى جحر عيش ذلك القاتل، وكان في ملكيته الخاصة وسط غابة صغيرة، وقصره عبارة عن فيلا ضخمة يقع في وسط غابة صغيرة مليئة بالأشجار ويحاط الحرس من كل جانب، المدخل عبارة عن بوابة حديدية ضخمة.

وفي محاذاة هذا القصر نهر يمشي، متصل بقنوات الصرف الصحي لتلك الفيلا، كانت الفيلا عبارة عن قصر كأنه قصر من عصر الفلكلوري إبان العصور الوسطى، مزخرفاً بزينة الرومانين القدامى، كأنك في أحد مسارح روما القديمة، ويتخلله بستان جميل مزروعة فيه مختلف الأزهار والنباتات كأنك في غرناطة أيام عصر الأندلس.

***

بـدأ جـابر يـتعلم في الـبراري ويعـيش في الغابـات واشـترى مسدسـا وكـاتم للصـوت، كمـا اشـترى سـيارة وبعـض الأدوات الأخـرى، وكـان يبيـع تلـك المجهـورات ويقايضـها بالمـال في أمكـان مغـايرة كي لا يكشـف أمـره ويـتهم بالسرـقة، كمـا كـان يسـتعمل أسـماء مسـتعارة وكـان يـدعي أنـه تـاجر مجوهرات...، وهكذا حتى استوى الأمر.

وكـان يراقـب الحـراس ويـدرس المنافـذ الـتي تسـاعده عـلى خطتـه، وكـان كـذلك يتـدرب عـلى الحيوانـات وينصـب لهـا الفخـاخ، ويتـدرب كـذلك عـلى اسـتعمال السـلاح، حـتى حـان الوقـت الـذي ينـتقم، وشرع أولا في إرسـال رسـالة واضـحة إلى عصابة "إل كابو"

وكانت ذلك من خلال:

كان جـابر يسـتعمل طرائـد الصـيد مـن الحيوانـات البريـة الـتي يصـطادها في الغابـة، وكانـت خطتـه الأولى هي أن يصـطاد بعـض الأرانـب البريـة وإطـلاق سراحهـا داخـل حـدود ملكيـة "إل كـابو"، وبالفعـل اصـطاد حـوالي ثمانيـة أرانـب بريـة مـن الحجم الكبير.

***

كما عمل على إحضار بعض الخيوط التي لا ترى وتشبه لخيوط صيد السمك كما كان لونها شفاف لا يرى في ضوء النهار مصنوع من مادة تجعل العين المجردة عاجزة عن رأيته، بعد نصب بعض الفخاخ الكبيرة حول تلك الغابة التابعة لـ: "إل كابو".

وكانت حوالي عشرون مصيدة من النوع الكبير التي يصطاد بها الحيوانات المفترسة، مغطاة بأوراق الشجر، كما كانت توجد بين مصيدة ومصيدة قرابة المترين، لأنه في حالة مطارة الحراس لتلك الأرانب لا تقع جميعها فيها ويكون لها بعض المنافذ.

ثم ربط تلك طرف ذلك الخيط في جسم الأرانب والطرف الثاني في شجرة، وكان ينتظر هناك تحتها بمسدسه العازل للصوت، وانطلقت تلك الأرانب صوب مكان الحراس، ثم لاحظ حارس وجودها وأشار على صديقه أن هناك أرانب بريه كبيرة، وتنافسوا على اصطيادها، بعدها فرت منهم الأرانب بسرعة ناحية تواجد جابر لأن مرجعها إلى هناك.

وفي تلك الوهلة سقط أرنبين في إحدى الفخاخ، وبقيت الأرانب الأخرى أمام حيز الشجرة تحاول الهروب، كاد أن يصل إليها حارس إلا أنه وقع في إحدى الفخاخ وبدأ يصرخ ويحاول أن يخرج قدمه منها.

***

أسرع هنا إليه حارسين، كانوا في المجمل ثلاثة حراس يتسابقون بينهم، وفي تلك الوهلة أصبحوا جميعها الآن فرائس لجابر وكانوا في مرمى تصويبه

ويخرج مسدسه ويشرع في إطلاق النار قتلهم جميعا، ثم أسرع إلى هناك وترك أحد الأوراق التي كانت باللون الأخضر مكتوبة بخط عريض باللون الأسود قد أعدها من قبل، مضمونها: "سألتقطكم واحداً واحداً مثل ما ألتقط النفايات، فأنتم والقاذورات سواء."

ثم نزع كاتم صوت وأطلق بعض الطلقات في السماء لينبه باقي الحراس، بعدها غادر المكان، وفي تلك اللحظة يسمع الحراس تلك الطلقطات ولم تكن بعيدة كثيرا، ثم أسرعوا حتى يشاهدوا الحراس مرميين في الأرض، وواقع أحدهم في مصيدة.

هنا انتبه أحد الحراس وحذرهم بإمكانية وجود فخاخ أخرى، ثم أخرجوا الجثث وشرعوا في البحث عن الفخاخ، وفعلا وجدوا ما يقارب تسع عشرة مصيدة أخرى، وكانت هذه خطة ذكية من جابر من أجل أن يؤخر تقدمهم ويستطيع الهرب منهم وأن لا يتبعوا أثره، وبذلك يكون قد نجح في أول اختبارته مع العصابة.

***

وفي تلـك الأثنـاء وبعـد مـا حـدث رجـع الحـراس خـائبين حيـث لـم يجـدوا أثـراً للقاتـل، وأخـذوا تلـك الورقـة الـتي وجدوها، وأطلع عليها "إل كابو" وغضب غضباً شديدا.

بعـد تلـك الحادثـة كـان غاضـبا جـدا إل كـابو ويحـدث عنـاصر عصابته:

- أريده حيا أريد أن أقتله بيدي هاتين

ثـم جلـس وأخـرج سـيجارة وراح يـدخن كعادتـه ثـم نظـر إلى أحـد الألـواح المعلقـة في جـدران قصره، وكـان أمامـه خادمـه "مناع" فحدثه:

- أتدري يا"مانوتشو" ما تلك اللوحة؟

وأشار عليها بيده التي كانت تحمل السيجارة

- نعـم يـا سـيدي تعـود إلى العصـور الوسـطى لعائلـة إيطالية ثرية
- أدري ولكن أتعرف قصتها؟
- لا يا سيدي ولكن أنت أدرى بها
- حسـنا سـأخبرك بهـا تلـك اللوحـة الفنيـة المرسـومة من رسام شهير تعبر عن "اللذة".

***

قاطعه مانتشو مستغربا "اللذة" !

- لا تستغرب ولا تقاطعني يا مانوتشو
- أسف سيدي
- حسنا نعود إلى قصتنا تلك العائلة كانت عائلة "بورجوازية" ذلك الرجل أميرا وتلك الحسناء زوجته وهؤلاء أبناؤه، ذات يوم وفي فترة حكمه انقلب شعبه عليه نتيجة الظلم والفقر السائد آنذاك، بعدها هاجم بعض المخربين القصر وقتلوا حراسه ومن ثم قتلوا عائلته أمامه.

- وتركوه حيا ليكون عبرة لمن بعده ولكي يتعذب أكثر، لا يهم من كان خلفهم، ولكن العبرة يا مانتشو ما حدث بعدها، أصبح ذلك الأمير يمشي في طرقات "روما" وباقي مدن "إيطاليا" وفي الأخير أصبح مجنونا وقتلته اللذة! .
- أتدري اللذة إما تقتل صاحبها أو تحويله إلى: "إل مونسترو" (الوحش)، وصديقنا عامل النظافة يا يا "مانتشو" قد أصبح وحشا بعد أن فقد لذته والمتمثلة في عائلته.

***

- أمـا "الأمـير" فقـد الـثراء (المـال) و(العائلـة) وهمـا جـوهرا اللـذة والـتي تجعـل الإنسـان إمـا وحشـاً أو مجنوناً.

ثـم مـرت قرابـة الشـهر مـن تلـك الحادثـة ولا أثـر للـوحش الـذي أرعـب كيـان "زعـيم المافيـا"، وفي تلـك الأثنـاء كـان جـابر يحضر لضربة ثانيـة، ولكـن قبـل ذلـك أراد أن يكتشـف جيـدا المنطقـة المحيطـة بالقصر، وهـذا مـا فعلـه وبينمـا هـو يـدور ويكتشـف المكـان حـتى يـرى مصـب لميـاه المجـاري تجرى مياها إلى نهر كبير.

وتفقـد جـابر ذلـك المصـدر حـتى وصـل إلى قنـوات صرف الصـحي كـان مبنيـاً تحـت الأرض وعـلى شـكل نفـق، مبـني بطريقـة هندسـية رائعـة، وكـان طـول ارتفاعـه ثلاثـة أمتـار وعرضـه سـتة أمتـار مـترين لمـرور تلـك الميـاه ومـترين آخـرين عـلى الـيمن مبنيـة كرصـيف صـغير، وعـن الشـمال كـذلك وكانت هناك مصابيح في أعلى ذلك النفق.

حـاول جـابر الـدخول حـتى سـمع صـوتاً صـادراً مـن الـداخل بعـدها ولى هاربـا، وحـدث نفسـه: "هـذا لـيس الوقـت المناسب سأرجع إليك ثانية سأرجع وأرى ما فيك".

***

ثـم خـيم كالعـادة قـرب ملكيـة "إل كـابو"، وشرع في البحـث عـن بعـض الخنـازير البريـة في الغابـة الكبـيرة المحاذيـة لغابـة "إل كابو"، وبحـث حـتى وجـد آثـاراً لهـا نصـب الفخـاخ وكـان يريدها حية، وبالفعل نجح باصطياد أربعة منها.

مثـل المـرة السـابقة، وضـعها في سـيارته ثـم ركنهـا بعيـدة نوعـا مـا وبعـدها بـدأ يجـر بـالخنزيز الواحـد كمـا وضـع (خطـام) عـلى فكـه لحجـب صـوته اخترعـه بنفسـه، وهكـذا حـتى صـاروا جميعـا أمـام إحـدى الأشـجار، لكـن لاحـظ جـابر وجـود عـدد أكـبر مـن الحـراس هـذه المـرة لكـن هـذا لـم يمنعه من إكمال مهمته.

ونـزع ذلـك (الخطـام) منهـا وأطلقهـا علـيهم، وبـدأت تمشي- وتصـدر صـوت حـتى وصـلت إلى الحـيز المكـاني الموجـود فيـه الحـراس كالعـادة، لأن "جـابر" درس مكـان وجـود الحـراس بدقـة حيـث كـان تواجـد الحـراس في مسـافة محددة من القصر وهذا ما استغله جابر.

و انتبـه لهـا الحـراس وبـدأوا بـإطلاق النـار عليهـا ثـم لاذت بـالفرار واتبعهـا بعـد ذلـك الحـراس، وكـان مـن بيـنهم ذلـك الحـارس الـذي انتبـه للفخـاخ، قـد شـك في الأمـر ثانيـة وحـذرهم ولكـن، ردوا عليـه أن الخنـازير لـو بقيـت هنـا لغضب منهم "إل كابو".

***

بعد ذلك عدل عن رأيه وشاركهم وتمكنوا من قتل خنزير واحد فقط بعدها وصلوا إلى المكان السابق وخافوا أن تكون هناك فخاخ تحسسوا لم يجدوا بعدها تقدموا حتى رأوا خنزيراً قريباً منهم وكان جابر يترصد لهم متخفياً عنهم وسط الأشجار والأعشاب، حتى أطلقوا النار وقتلوا الخنزير الثاني، ثم حاولوا قتل البقية.

وفي تلك الوهلة يباخت خنزير أحد الحراس ويسقطه أرضا، وهناك افترق الحراس خوفا منهم وتمكن جابر من القضاء على حارس وتبقى ثلاثة حراس، بعدها تمكن من الثاني، وكان حذرا للغاية من الخنازير والحارسين.

ثم تمكن من قتل أحد آخر ولم يتبق إلا حارس واحد و2 من الخنازير طلقاء، هنا جابر أطلق النار على أحدهم وقتله ومن ثم يبق خنزير طليقاً وحارساً، كان الحارس بعيداً نوعا ما، ثم اقترب جابر ولاحظ أنه يحمل جهازاً من أجل أن يتصل ببقية الحراس ثم يسرع إليه ومن خلفه حتى يطعنه طعنة ويحاول الحارس أن يقاوم لكن بلا جدوى ثم وجه إليه بعض الطعنات حتى أردفه قتيلا.

***

بعدها بحث عن ذلك الخنزير لأنه كان مربوطاً وقتله هو الآخر وأسرع في البحث على باقي الحراس ووضعهم في مكان واحد كما وضع رؤوس الخنازير جنب الحراس وكانوا أربعة رؤوس يقابلهم أربع جثث للحراس، ثم وضع ورقة كعادته ومكتوب فيها هذه المرة: "عندما لا تجد عدالة في هذه الحياة فاصنع عدالتك بنفسك".

وكانت رسالة شديدة اللهجة هذه المرة من جابر وتعني الكثير، فالمقصود بالخنازير هي كائنات مفسدة ونتنة ولا تحب إلا القاذورات والأوساخ، ومن ثم استعملها جابر لتشبيه تلك الخنازير بإل كابو وعصابته أما عن قتلها فهو تطهير منها ومن أوساخها وقاذوراتها، ففي الأخير هو عامل نظافة !.

بعد ذلك تفقد وتمكن باقي الحراس من اكتشاف الجثث واسرعوا إلى "إل كابو" وقد كانت نتيجة ذلك أنه قتل ما يقارب ستة حراس كانوا في الحراسة ذلك اليوم، لأن إل كابو فهم الرسالة جيدا وأن هذا الشخص لن يتوقف حتى ينال منهم، وراح يصيح:

***

"إل مونسترو"... "إل مونسترو"

- يبـدو أنـك تريـد أن تتحـداني سـنرى مـن يقضي- عـلى الآخر في نهاية المطاف.

ثم خاطب "مانوتشو" قائلا:

- يبـدو أن الفقـراء بعـد أن خسرـوا كـل شيء في حيـاتهم يريدون أن يخسروا آخر ما تبقى لهم!

ثم رد عليه مانوتشو:

- ولكـن يـا سـيدي "إل كـابو"، هـو لـم يعـد مـن الفقـراء، لأن معه تلك المجوهرات لا تقدر بثمن
- أعلــم ذلــك أنــا أدري ، ولكــن قصــدت أن طــوال حياتــه كـان فقـيراً لا يسـتيطيع أن يأكـل لقمـة أكـل بسهولة.

وهكـذا يكـون جـابر قـد نجـح مجـدداً وأبـان عـن شـجاعة بعـد أن كـان في المـاضي لا يـؤذي أحـدا، كـل ذلـك نتيجـة قتـل زوجتـه وابنتـه صـار وحشـا يقتـل أي أحـد لـه علاقـة بالمافيـا السوداء، أو كما تسمى: "لابندا نيرا".

***

وهـذه المـرة لـم ينتظـر جـابر كثـيرا وبعـد مـرور أسـبوع غـادر جـابر إلى مملكـة "إل كـابو" في قلـب الغابـة، ولكـن هـذه المـرة كانـت غايـة "إل مونسـترو" يعـني "جـابر" في غايـة الخطـورة وذلـك لأنـه يريـد أن يسـتعمل تلـك المجـاري للـدخول إلى قصر "إل كـابو"، فهـو يـدري أنهـا لـم تبـنى هكـذا فقط بل وراءها شيء.

ودخـل بعـدها جـابر ذلـك النفـق ومشى فيـه بحـذر وكـان طـويلا، حـتى وصـل إلى سـلم يـؤدي إلى الأعـلى وتسـلق السلم بـبطء، وهـو يتسـلقه حـتى وصـل إلى فتحـة بهـا غطـاء حـاول أن يبعـدها دون أن يصـدر صـوتا، و أبعـده ثـم دخـل الغرفـة، ويلاحـظ أنهـا عبـارة عـن غرفـة لتخـزين المـؤن وهـو يمشي حـتى يصـطدم بأحـد القـارورات الزجاجيـة وتسـقط لتصدر صوتا، لم ينتبه لها

بعـدها أسرع واختـبئ خلـف أحـد الأكيـاس، ثـم لاحظـت خادمـة ذلـك الصـوت ودخلـت الغرفـة لـترى مـا يحـدث، وفي تلـك اللحظـة أخـرج جـابر سـكينا وكـان متهيـأ لمـا هـو قـادم كـان عليـه مرغمـا قتـل تلـك الخادمـة ثـم وصـلت وتـرى قـارورة وسـط الغرفـة دون أن تلاحـظ وجـود جـابر، وتكلمـت بصوت مرتفع قليلا سمعها جابر تكلم نفسها:

***

- ربما قطة السيدة ليلى

وعادت أدراجها، هنا شعر جابر بخطورة المهمة، وفي أي لحظة يمكن له أن يُقتل، بعدها انتظر بعض الوقت ثم غادر تلك الغرفة ويدخل للقصر- ويجد القصر- كأنه في عصر- من العصور الوسطى العديد من الغرف واللوحات الفنية المعلقة.

كما شاهد لوحة كبيرة فيها رسمة للزعيم العصابة وابنته، لاحظ لوحة أخرى كبيرة الحجم لامرأة شقراء جميلة الملامح، وهو يمشي- بحذر في ممرات القصر-، حتى تخرج خادمة وكان بعيداً نوعا عن تلك الغرفة التي دخلها منها، ثم تصرخ وتقول:

- دخيل يا سيدي .....

وفي تلك اللحظة ارتبك "جابر" وتجمد في مكانه للحظة من الزمان وهناك يخرج "إل كابو" من غرفته حاملا مسدسه ويرى "جابر" وتلتقي عيناهما وكان خلف جابر وليس أمامه بعدها يفر جابر لرؤيته، ويطلق "إل كابو" النار على "جابر" عدة طلقات حتى يصيب جابر على كتفه.

***

وأسرع "جابر" وهو ممسك ذراعه ويجري قدر المستطاع ويتمكن من النزول من ذلك السلم ويعود أدراجه ويجري وينظر خلفه، في تلك اللحظات يسمع الحراس خارج القصر- طلقات نارية ويدخلون فورا ثم يسرع له كذلك قائد الحرس ويكلمه:

- هل أنت بخير سيدي هل أصابك مكروه؟
- لا أنا بخير ولكن كان هنا كان هنا رأيته بعيني يا "مانتشو"
- من تقصد سيدي لا تخبرني ..
- نعم إنه هو "إل مونسترو" لم أخطأ عندما سميته بهذا الاسم
- يا إلهي أصبح الوضع خطر هذه المرة يا سيدي ماذا نفعل الآن وهو قد تخطى حدوده مع جلالتك.
- ولكن لما لم تتبعه يا سيدي
- لقد كان مسلحا أيضا
- مسلحا؟ ولكن يا سيدي سمعت فقط صوت مسدسك!
- كان معه مسدسا كاتم للصوت يا أحمق
- أصحيح نسيت ذلك آسف يا سيدي

***

بعـدها وصـل الحـراس واتبعـوا أثـر الـدماء ووجـدوها تنـتهي إلى غرفــة المؤونــة كمــا وجــدوا هنــاك فتحــة تــؤدي إلى الخـارج، كمـا لـم يكـن لهـم علـم بوجـود تلـك الفـتح في القصر. كـان يعلمهـا عـدد قليـل فقـط، ثـم عـادوا إليـه وأخـبروه بمـا حدث، وخاطب "مانوتشو":

- يبــدو أن صــديقنا اكتشــف أحــد مخــارج الطــوارئ التي أعددنها، كما أنه تغلغل كثيراً في المملكة
- ولكن يبدو أن هذه مصادفة يا سيدي
- لا تكــن أحمقــا يــا مانوتشــو أحيانــا أراك أذكى مــني وأحيانــا أراك غبيــاً، لا أعتقــد أنهــا مصــادفة لقــد خطـط لكـل شـيئاً، ولكـن مـع تلـك الإصـابة لا أظنـه سـينجو فالغابـة كبـيرة والإصـابة بليغـة سـينتهي بـه المطاف جثة هامدة تتغذى منها الوحوش البرية.
- صدقت يا سيدي.

بعـدها كان جـابر يمشي. في الغابـة وقـد خـرج مـن ذلـك النفـق ويســتعين بالأشــجار كــان قــد نــزف كثــيرا، ويمشي. ويمشي. حـتى وصـل إلى قـارب كـان قـد أعـده مـن قبـل للهـروب ورمى حالـه هنـاك واسـتلقى عليـه، ثـم فقـد وعيـه بعـدها، وكان تيـار النهــر شــديد وجــرف القــارب حــتى وصــل إلى جــذع شــجرة كانت داخل النهر مما توقف القارب هناك.

***

واستمر بعض الوقت حتى أتى راعي غنم يشاهد قارباً وكأن فيه شخصاً ما، تقدم نحوه ووجد جابر داخله مغطى بالدماء أسرع إلى بيته الخشبي في الغابة ونادى على ولديه، ثم أسرعوا للقارب وحملوا جابر منه وأدخلوه البيت، ثم ذهب أحد الأبناء لإحضار الطبيب إلى هناك ولم يريدوا أخذه إلى المستشفى خوفا وتحسبا لأي طارئ.

وتم إحضار الطبيب و استخرج منه تلك الرصاصة كما أخبرهم إذا تضاعف عليه الحال لا بد من أخذه إلى المستشفى،بعد مدة من اعتناء ذلك الراعي وأهله بجابر استعاد عافيته وشكركم كثيرا على ما تلقاه من حسن معاملة، كما حاولوا معرفة الحقيقة ولما أصيب بطلق ناري، تأسف عليهم، ولكن صارحهم بأنه يقول لهم الحقيقة ، وهو ليس شخصاً سيئ إنما شخص مظلوم حاول أحد الظلمة التخلص منه.

بعدها غادر المكان ووعد الراعي وأهله على زيارته ثانية، ثم أكمل جابر مغامرته مع العصابة بعد أن مكث بعض الوقت عند العجوز الراعي وأهله، كما لم يمنعه هذا في التفكير بـ: "إل كابو"، وكان يخطط لأن يغتاله ولكن بطريقة ذكية وكانت هذه المرة فكرة تتمثل في قتل الطباخ وأن يتنكر في زيه ولكن تبقى مهمة صعبة، ثم فكر وفكر حتى توصل إلى فكرة جهنمية، ولكن لا بد له في الأول أن يتخلص من الطباخ.

***

9

بعد فشل جابر في اغتيال الزعيم إل كابو داخل قصره، ويصاب بطلق ناري في كتفه يهرب إلى النهر ولا يجده الحراس، وهنا يعتقد إل كابو أن جابر قد لقي حتفه أو هرب منهم بعد أن أصيب، ولكن في أحد الأيام أخذ الطباخ إجازته المتمثلة في يوماً واحداً، ليزور أهله.

وكانت هذه عادة من عادات إل كابو، يمنحهم يوم واحد فقط في الأسبوع، وبينما ينزل ذلك الطباخ من سيارة الأجرة حتى يباغته رجل ملثم ويطلق النار عليه ويقتله هنا كانت سيارة أخرى تراقب الحدث ونزل منها مافيا إل كابو ويتبادولوا النار مع ذلك الشخص لأن الاعتداء على عامل من عمال القصر كأنك اعتديت على إل كابو نفسه.

وهم كذلك حتى قضوا عليه ثم أسرعوا إليه، ونزعوا ذلك القناع ليجدوا المفاجأة كان وجه جابر أمامهم مرميا، ومن ثم قتلوا ذلك الوحش "إل مونسترو" الذي أربكهم في الغابة، بعدها أحذوا جثة الطباخ وجثة "إل مونسترو" إلى الزعيم.

***

وكان ذلك الخبر ومشاهدة جابر ميتا أمامه بمثابة القضاء على زعيم مافيا منافس، كما كافئ هؤلاء الحراس، ورفع رتبهم، ولكن بقي عائق أمامه وهو الطباخ فـ: "إل كابو" يحب الطبخ الإيطالي ولابد له أن يجد طباخا ماهرا ويجيد الطبخ الذي يحبه، هنا قرر عمل مسابقة لـ: 8 طباخين ومن يعجبه طبخه يعينه في المنصب الجديد.

وتقدم إلى ذلك 8 طباخين كانوا يعرفون طبيعة عمل "إل كابو" ولكن حب المال أعماهم، وكانت هناك امراة معهم في الصف رآها أحد الحراس كانت ترتدي زي النساء في العصور الوسطى وترتدي قبعة وكانت حسناء شعرها مائل لونه بين الأصفر الذهبي والأحمر الآجوري، وكان ليس بالقصير ولا بالطويل، تتخللها شامة تحت شفتيها وغمازة تزين ابتسامتها، وعينيها الزرقاوين.

وجسدها لا بالبدين ولا بالنحيف، بعدها سخر منها ذلك الحارس لأنه لم يعهد وجود طباخة في القصر، كما كان يضحك على لباسها "الكلاسيكي"، وفي تلك الأثناء يقبل رئيس الحراس والخدم "مناع"، ويوبخ ذلك الحارس ويعتذر منها، ولكن لم تتبادل معه الكلام.

***

وفي تلك اللحظات يُنادى عليهم من أجل بداية المنافسة، وكل طباخ أعد أكلة إيطالية، وفي الأخير "إل كابو" أعجب "بفطيرة الموتزاريلا" التي أعدها أحد الطباخين إلى جانب تلك الطباخة، فحتار بينهما، ولكن كان يميل إلى فطيرة الطباخ.

وهنا نادى على ابنته "ليلى"، وأخبرها أن تأكل من الطبقين الذي أمامها وأكلت وأُعجبت بـ: كعكة تلك المرأة، هنا قرر "إل كابو" أن يأخذ الرجل كطباخ رئيسي- والمرأة كمساعدة له.

وكانت هذه المرة الأولى التي يعمل هكذا وفي الحقيقة أعجب الزعيم بالمرأة لجمالها أيضا خصوصا أنها كانت تحمل ملامح إيطالية، وفي تلك الأثناء سأل الطباخ عن اسمه:

- ما اسمك؟
- اسمي يا سيدي "جاروسو"

وكان ذلك الطباخ في الخمسينات من عمره هكذا كانت ملامح وجهه، يعني يقارب لعمر "إل كابو".

***

- جارسو إذن يا له من اسم غريب!، أين تعلمت الطبخ؟
- في إيطاليا (سينيوري) سيدي

وخاطبه ضاحكا:

- يبدو أنك تجيد الإيطالية مثلي
- (سي سينيوري) نعم سيدي

وهكذا كانا يتبادلان الكلام باللغة الإيطالية.

وهكذا استمرت حياة "إل كابو" مقسومة بين حياة داخل القصر وخارجه كان يقوم بعمليات السرقة المعتادة والسطو على المحلات بإرسال رجال عصابته "لابندا نيرا"، وداخل القصر كان يحاول أن يتقرب من تلك الطباخة "أنطوانيت"، حيث أُعجب بها، لكن كانت تصده عنها.

كما كانت هي كذلك من أصل إيطالي وهو ما استدعى "إل كابو" أن تعامل معاملة خاصة داخل قصره، لا على أنها أحد من خدمه، كما كانت أنطوانت معجبة بالطباخ جاروسو وتفانيه في عمله.

***

صحيحاً كان فارق العمر بينهما ما يقارب 15 سنة إلا أن هذا لم يمنع من أنطوانيت أن تعجب به، صحيح لم تصل لدرجة الحب ولكن كان هناك نوع من الاهتمام بدأ يتولد في ذلك المطبخ، لكن "جاروسو" في الحقيقة انتبه لهذا الأمر، و كان يرى علاقته معها علاقة أب بابنته، وهذا ما كان يريد أن تلاحظه.

وكان هذا يزعج قليلا أنطوانيت كيف لحسناء مثلها لا يبادلها ذلك الطباخ الشعور نفسه، في المقابل "إل كابو" واقع في غرامها، لكن هي لا تطيقه خصوصا لأنه سكير وزير نساء، وكانت "أنطوانيت" تحاول أن تعرف عن "جاروسو" وعن عائلته وكيف كان يقضي الوقت في إيطاليا قبل أن يجيء إلى قصر "إل كابو".

وفي المقابل كان "جاروسو"، قليل الكلام لا يتكلم إلا في أمور الطبخ والأمور الضرورية، كل ما تعرفه عنه أن لديه ابناً وحيد وهو الآن يعيش مع أمه الإيطالية هناك بعد أن انفصل عنها "جاروسو"، وكانت تريد أن تعرف السبب لكن الطباخ أكتم عن الموضوع ولا يريد أن يتكلم عن حياته الخاصة والسابقة.

***

وهكـذا توالـت الأيـام في القصر، وذات مـرة طلـب "إل كـابو" حضـور "أنطوانيـت" إلى تلـك المائـدة الكبـيرة والـتي يجلـس عليهـا "إل كـابو"، وأمرهـا أن تجلـس فجلسـت، بعـدها بـدأ يتكلم وسألها:

- لما تتهربين مني كل ما أردت الاقتراب منك؟
- بصراحة يا سيدي أنا أخاف منك

ورد مبتسما وهو يحمل كوباً من الخبر:

- تخافين مني ولماذا؟
- لأنـك تقتـل الإنسـان دون رحمـة وأخـاف أن تقتلـني ذات يـوم لهـذا لا أريـد أن أتقـرب منـك كـل مـا أريـد هو أن أساعد الطباخ وحسب.
- يبدو هذا السبب إذن
- هنـاك سـؤال يـؤرقني كيـف لحسـناء مثلـك وفي جمالـك وفي هـذا السـن ولـم تـتزوج بعـد؟ وكيـف لهـا أن تطلـب العمـل عنـد زعـيم للمافيـا ألا تـري هـذا غريبا نوعا؟

***

- صحيح يا سيدي ... في الحقيقة أنا أحب الثقافة الإيطالية مثلك وأحب أن أعيش كأنني في العصور الوسطى، أنت تعرف أننا في بداية القرن 21 ولا توجد مثل هذه العادات اليوم.
- لهذا أردت العيش في هذا القصر، وفي بداية الأمر ترددت إلا أنني تشجعت ففي الأخير أنا مجردة طاهية، وأنا بدوري أريد أن أسألك لو سمحت.
- تفضلي.
- لما لم تتزوج إلى الآن؟
- يبدو أنك تلاحظين جيدا
- أجل يا سيدي الكل في القصر يعلم أن زوجتك الإيطالية توفيت منذ مدة.
- ولما تسألين هذا السؤال بالذات؟
- في الحقيقة يا سيدي إنك تحرجني أمام الجميع بالتقرب مني وكل من في القصر أصبح يعلم هذا.

رد عليها ضاحكا:

- وما المانع في ذلك أنا السيد هنا والجميع خدم تحت قدمي، وأنا حر في أفعالي ومن يريد أن يحاسبني فاليتفضل ويريني شجاعته.

***

- تـذكرت سـمعت مـن بعـض الخادمـات أن شـاباً في أواخـر الثلاثينـات أراد أن يقتلـك في قصرـك هـذا صحيح؟

هنا تغير وجه "إل كابو" وتكلم غاضبا:

- صـحيح ولكـن قُتِـل بعـد ذلـك، ولـم يقتلـني وهـا أنـا أمامـك، ولا تعيـدي سـيرته أمـامي مـرة أخـرى فأنـا لا أطيقه.

وفي هـذه الأثنـاء يـأتي الطبـاخ "جاروسـو" ويحـاول أن يعـرف ما حدث لأن صوت إل كابو كان عاليا وخاطبه:

- عـذرا سـيدي هـل هنـاك خطـب في الطعـام؟ سامحني أرجوك
- لا لا الطعـام كـان لذيـذا كالعـادة كـل مـا في الأمـر أن مزاجي تم تعكيره من قبل تلك المرأة
- آه الحمـد الله، كنـت أعتقـد أن كـل غضـبك مـن الطعـام، عـلى كـل سـيدي أذكـرك أن غـدا هـو يـوم راحتي لكي تأذن لي بالمغادرة
- يـا جاروسـو كم مـن مـرة نبهتـك عـلى أن تـذهب دون أن تستأذن مني.

***

- لا أستطيع يا سيدي.
- حسنا حسنا

بعدها غادر إل كابو، ثم حاول أن يعرف جاروسو من أنطوانيت ما حدث لكن لم تخبره كانت غاضبة منهما من "إل كابو" و"جاروسو"، فالأول يهتم لها ولا تحبه، أما الثاني تقترب من درجة حبه له ولكن لا يهتم لأمرها، كانت واقعة بين نارين.

وفي اليوم الموالي غادر "جاروسو" إلى بيته وكان بيتاً صغيراً بعيداً عن مملكة إل كابو حوالي 3 ساعات قيادة بالسيارة، يرتاح فيه يوم ثم يعود أفراد العصابة إلى نقله بعدها.

كان جاروسو يعتمد على سيارات العصابة في الإياب والعودة ولم يكن يأبه للناس، عكس الطباخ الذي كان قبله كان يستقل سيارة أجرة من أجل أن يخفي حقيقة عمله.

وبعد مرور ذلك اليوم وبينما الطباخ في المطبخ جاءت إليه "أنطوانت" وكانت تريد أن تسأله كالعادة بينما كان يعد الطعام وهي تساعده سمح لها بالكلام .

***

- في الحقيقة يا سيد "جاروسو" هناك أمران يؤرقانني وهما الأول:
لما اخترت أن تعمل لدى هذا الشخص وأنت تعلم خطورته، فأنت دائما هادئا ومجتهدا في عملك، لا أدري لما أقحمت نفسك هنا؟
- أهذا سؤالك إذن، هو السبب نفسه الذي أنت هنا من أجله.

تعجبت أنطوانت واحمر وجهها، كأنها تخفي شيء عن الجميع،

وهنا انتبه لها الطباخ

- ما بك؟ لما تغير وجهك هكذا فجأة
- لا لا شيء ولكن لم أفهم ما تقصده
- أنا أيضا أحب الثقافة الإيطالية مثلك وأحب أن أعيش كأنني في العصور الوسطى وسط القصور والخدم.

هنا تغيرت ملامح أنطوانت وعادت إلى سابق عهدها، ثم ابتسم معها "جاروسو"، وكانت هذه أول ابتسامة تراها أنطوانت منذ قدومه للقصر وردت عليه:

***

- يا إلهي أين تخفي هذه الابتسامة الجميلة

ثم كانت تضحك وسعيدة، حتى طرحت عليه السؤال الثاني:

- وأيضا يحيرني أمرا فيك وهو أنك تجيد التنظيم جيدا وبارعا فيه

قاطعها:

- يا أنطوانت الطباخ الجيد هو من يجيد الطهي والتنظيف معا، حيث لا بد أن لا تبقى أي رواسب من مخلفات الطعام أو المعدات الخاصة بالطبخ في المطبخ.
- أنا لا أقصد هذا إنما أقصد تنظيف خارج القصر- فكثيرا ما أراك من النافذة تساعد هؤلاء الخدم وأتعجب لذلك؟ لِمَ يفعل هذا؟ كما كنت بارعا أيضا؟

هنا صمت قليلا جاروسو، ثم تنهد وأكمل كلامه"

- تلك عادة قديمة لا تريد أن تفارقني منذ أن انفصلت عن زوجتي وابني وأنا أنظف بيتي وحدي وأطبخ وحدي لذا اعتدت الأمر، لهذا لا تتعجبي أحيانا جسدي يتحرك من تلقاء نفسه.

***

- آه صحيح يبدو هذا جوابا مقنعا، على كل إن احتجت مني أي شيء أنا في الخدمة
- لا شكرا أتمنى أن لا أحتاج إليك.

هنا غضبت "أنطوانت"، وانتقلت إلى جهة أخرى في المطبخ وأكملت عملها هناك.

وبعد مرور القرابة الشهر تقريبا، كان الطباخ كعادته يحظر وجبة العشاء وكان الجو آنذاك ممطرا وباردا، وأراد أن تكون "فطيرة الموتزاريلا" مع بعض الدجاج المحشي- هي وجبة إل كابو، وكان وحده في المطبخ حيث تأخرت أنطوانيت بالخضور لأنه كان اليوم الذي سبق تلك الليلة يوم راحة لها، لذا اعتمد جاروسو على نفسه وأعد الفطيرة وحده.

كما أعد إلى جانبها طبق "الباستا " التي تحبها "ليلى"، بعد ذلك أعد الطاولة التي دائما ما يأكل فيها "إل كابو" والتي كانت كبيرة الحجم وطويلة يجلس هو والبعض المدعوون أحيانا، كما يجلس مع ابنته "ليلى".

وفي تلك الأثناء وبينما هو يعد الطاولة حتى تأتي أنطوانت مسرعة، وتحاول أن تبرر له سبب التأخير، لكن "جاروسو" لم يهمه الأمر فهو في الأخير خادم مثلها.

***

بعـد ذلـك نـادى رئـيس الخـدم لـكي ينـادي عـلى الـزعيم وابنتـه، بعـدها ذهبـت "أنطوانيـت" لتغـير ملابسـها وتـأتي بعـد ذلـك وفي هـذه الأثنـاء، ينـادي "مانوتشـو" عـلى إل كـابو و"ابنتـه لـيلى"، ثـم حضرـ إل كـابو ولـيلى وجلسـا هنـاك وكـان واقفـاً أمامهمـا رئـيس الحـرس "مانوتشـو" وكانـت هـذه عادته حتى ينصرف "إل كابو"

إلا في حـالات اسـتثنائية عنـدما يرسـله إلى عمـل معـين خـارج القصرـ يكـون وحـده، وفي تلـك الليلـة بالـذات كـان قـد أمـر "إل كـابو" مـن "مانوتشـو" أن ينتظـره أمـام الطاولـة وأن يتنـاولوا معـاً مأدبـة العشـاء، وهـذا مـا كـان جلـس كـل مـن الزعيم وفرد من عصابته وابنته.

ثـم حضرـ الطبـاخ كعادتـه وسـأل "مانوتشـو" مـاذا يريـد أن يتنـاول مـن طعـام وكـان رده أن يتنـاول مثـل الـذي يتناولـه سـيده تلـك الليلـة، وكانـت فطـيرة المـوتزاريلا، للسـيد "إل كابو" ثـم قـدم إليـه الطعـام والشراب والـذي كـان عبـارة عـن (شراب البرتقـال) لـ "إل كـابو" لأنـه كـان يمتنـع مـن شرب الخمـر أمـام ابنتـه "لـيلى"!، فحـين "لـيلى" قـدم لهـا (عصـير التفـاح) الـتي تحبـه، فيمـا "مانوتشـو" فقـد سـقاه شراب (التوت البري).

***

ثـم أكـل قلـيلا "مانوتشـو" وذهـب للمهمـة الـتي أخـبره بهـا "إل كـابو"، وسـألت لـيلى أبيهـا لمـا لـم يكمـل مانوتشـو أكلـه فـرد عليهـا لديـه مشـوار قصـير ويعـود، وفي تلـك اللحظـة كانـت "أنطوانـت" داخـل المطـبخ، وحالهـا كـان يـدل عـلى أنها في حالة من الخوف لاحظها الطباخ، وهم إليها

- ما بك لما انت هكذا؟
- لا لا شيء دعني وشأني
- حسنا مثل ما تريدين

ثـم غـادر الطبـاخ وذهـب ليتفقـد "إل كـابو" و"لـيلى"، أقبـل عليها، وسأله:

- ماذا تريد يا جاروسو؟
- أريـد أن أتفقـد الآنسـة الجميلـة إن كانـت تحتـاج شيء

بعـدها لاحـظ "إل كـابو" أن الطـاهي بنظـر ناحيـة السـاعة، وسأله متعجباً:

- لمـا تنظـر إلى السـاعة هكـذا يبـدو كأن لـديك موعـدا مع أحدهم

وكـان يضـحك إل كـابو، وفي تلـك اللحظـات بـدأ يحـس إل كـابو بـبعض الآلام في بطنـه، واسـتغرب، ثـم نظـر إليـه الطباخ وسأله:

***

- ما بك يا سيدي هناك خطبا ما؟
- لا أدري أحس كأن بطني يؤلمني

ثم أخرج الطباخ شيء من جيبه وسأله "إل كابو"

ما هذا الذي أخرجته الآن؟

وفي تلك اللحظات بدأ الألم يزداد

- انظر بنفسك

ووضع الطباخ يده على الطاولة ثم رفعه ويرى إل كابو أن هناك "قداحة"، رفعها وهو في تلك الحالة وتعجب!

- من أين لك هذا؟
- لا تتعجل

ثم أقبل عليه الطباخ مرة ثانية وأخرج شيء آخر من جيبه وكرر الفعل نفسه، وإذا به يرفع يده عنه وتكون هناك المفاجأة خاتم ألماس أزرق يعود إلى زوجة "إل كابو" وفي تلك الوهلة كاد يجن لم يدر ما يحدث وهنا ازداد الألم أكثر.

***

وكـان يمسـك بطنـه ثـم أردا أن يمسـك بـذلك الخـاتم، حـتى يسـقط مـن الكـرسي ويـرى ابنتـه لـيلى تسـقط كـذلك في الأرض لا تتـنفس هنـا يزحـف إليهـا ويريد أن ينادي لكن بلا جدوى خارت قواه.

بعـدها وقـف الطبـاخ في المنصـف بينـه وبـين ابنتـه، رفـع إل كـابو رأسـه ملامـح الغضـب تعلـو وجهـه ويتكلم لكن بصوت خافت أثر فيه السم!،

بعدها تكلم الطباخ:

- يبـدو أنـك في حـيرة مـن أمـرك ولا تـدري مـا يحـدث، سـأخبرك لا تقلـق صـحيحاً لـم يتبـق لـك إلا ثـواني ولكـن سـتكون آخـر ثـواني في حياتك،
- سـألتني يـوم وظفتـني عـن حقيقـة اسـمي، وكـم يبـدو غريبـا ولكـن يحـق لـك الآن أن تعرف معناه:

("جـا": يعـني اختصـار لاسـمي جـابر)، ("رو": إختصـارلحرف الـلام اسـم ابنـتي الغاليـة "ربـا" وغـيرت الضـمة إلى واو)، أمـا آخـر حـرفين مـن الاسـم فكان يعني اسم كلمة رفيقة دربي وحياتي:

***

("ســو": ســو ســو أو ســميرة) والآن قــد عرفــت حقيقة اسم "جاروسو"

هنـا حـاول "إل كـابو" أن يمسـك قدمـه ولكـن بـلا جدوى، بعد ذلك واصل "جابر" كلامه:

- هــذا أنــا "جــابر" عامــل النظافــة الــذي وعــدك هــا هــو الآن يــفي بوعــده، وهــذه الليلـة سـميتها بليلـة "فطـيرة المـوت زاريـلا"، ولكــن ذق مــا ذقتــه فــالآن المــوت يــزور "ليلى" أيضا يا "إل كابو":

حيـاة مقابـل حيـاة، أخـذت روح زوجـتي وأنـا الآن آخـذ روحـك، وأخـذت روح ابنـتي وأنـا الآن آخـذ روح ابنتك ليلى فانظر لها ...

- هنـا تبـين كـل شيء لـ: إل كـابو وكـان يحـاول بكـل جهـد أن يصـل لابنتـه، بعـدها تـنحى جـابر عـن الطريـق وتـرك إل كـابو يزحـف وكـان يزحـف حـتى وصـل إلهـا ثـم خرجـت روحه هناك
- وفي تلــك اللحظــة تــرك جــابر الخــاتم والقداحة على الطاولة.

***

- وحمل ليلى وهو راجع للخلف حتى يجد أنطوانيت تخرج من غرفة المطبخ مسرعة وتحمل مسدسا بيدها، وملامح وجهها متغيرة، ثم نظرت إليه ووجدته يحمل "ليلى"، وصاحت بأعلى صوتها:
- ما الذي فعلته بها

ونظرت ناحية طاولة الطعام وتجد "إل كابو" مرمياً هناك جثة هامدة لا يتحرك، هنا اتضح لها الأمر، بعد أن شاهدت القطة ميتة داخل المطبخ تبين لها أن الأمر مدبر من الطباخ بوضع سم في الأكل.

ثم رد عليها جابر:

- ما الذي تفعلينه أنت تعيقين طريقي ولما تحملين هذا المسدس وأنت ترتجفين!
- هذا لا يعنيك لما قتلتها لما؟ إنها طفلة!

وكانت الدموع تملأ عينيها

- ومن أنتِ لتحاسبيني، بالمناسبة لقد قتلته وهذا هو الذي يهمك الآن
- وما يدريك ما يدريني
- لا يا أنطوانيت أنا الذي أعرف
- وما الذي تعرفه

***

- أعـرف كل شيء عنـكِ، أعـرف أنـك هنـا بغيـة الانتقام من قاتل أهلك.

وتعود القصة إلى:

بعـد محاولـة والـدها الطبـاخ تسـميم إل كـابو وذلـك بعـد أن اشـتكت زوجـة الطبـاخ منـه، في أحـد الأيـام كـان الطبـاخ في قصرـ "إل كـابو"، وكـان العمـال لـدى "إل كـابو" لهـم يومـاً واحـداً راحـة ويعـودون، لـذا مرضـت ابنتـه "أنطوانيـت" وأحظرتهـا إلى قصرـ "إل كـابو" وهنـاك رآهـا "إل كـابو" وأعجب بزوجة الطباخ وأراد التُقرب منها لكنها منعته.

بعـد ذلـك اشـتكت لزوجهـا، وهـذا مـا اسـتدعى زوجهـا يحاولـة تسـميم "إل كـابو"، لكـن محاولتـه بـاءت بالفشـل، كـون أن "إل كـابو" كـان مـاكرا وذكيـا ولاحـظ أن هنـاك خطبـا مـا، وفي تلـك الأثنـاء قـدم الطبـاخ وجبـة "إل كـابو" كالعـادة، ثم أمره بالانصراف.

وكانـت بـالقرب مـن "إل كـابو" قطـة أراد أن يطعمهـا بعـض الطعـام وهـذا مـا كان وفي لحظـة مـا يـرى تلـك القطـة تتخـبط بعـدها ماتـت هنـاك في خـلال ثـواني معـدودة، ثـم أمـر "إل كـابو" بقتـل كـل مـن الطبـاخ وزوجتـه، وتـرك ابنتـه عـلى قيـد الحياة لأنها كانت في المستشفى آنذاك.

***

كما حاول والد أنطوانيت الهروب لكن بلا جدوى، حيث كان هناك عرف لدى "إل كابو" وهو: إذا وُظِفت عند "إل كابو" يعني رهن نفسك.

وتعجبت بعدها و أخبرها أن إل كابو ومساعده كان يعلم أنها ابنة الطباخ الذي قتله.

حيث سمعه في أحد الأيام يتكلم مع مساعده.

وفي تلك اللحظة يدخل "مانوتشو" من الباب الرئيس ويصعد على الدرج المؤدي للأعلى وهناك يصادف الطباخ "جاروسو" والطباخة "أنطوانيت" موجهة له مسدسه، لم يستوعب ما الذي يجري.

وفي تلك الأثناء يرى الزعيم مرمى في الأرض لا يتحرك وأسرع مباشرة هناك وحاول أن يتفقد ولاحظ بعض "الرغوة" خارجة من فمه، هناك أدرك أنه ميت وكان جسمه باردا وعيناه مفتوحتين،

وفي تلك الوهلة يخرج "مانوتشو" مسدسه وما أن يوجهه عليه حتى يسمع طلقاً نارياً، وكان من قبل "أنطوانيت" قتلت "مانوتشو" بطلقة واحدة، وهناك استغل جابر الوضع ووضع البنت "ليلى" وفر هارباً.

***

بعـدها دخـل الحـراس مبـاشرة ووجـدوا زعـيمهم مقتـولا ومسـاعده، ثـم أخـذت "أنطوانيـت" "لـيلى" لغرفتهـا ثـم تفقـدتها وجـدتها تتـنفس، تيقنـت هنـا بـأن "جاروسـو" لـم يقتلهـا إنمـا وضـع لهـا منـوم في الطعـام، لـذا نامـت وغلبهـا النعاس أثناء تناول وجبة العشاء.

وأرادوا الحـراس معرفـة مـا جـرى واسـتجوبوا الطباخـة عـن الـذي جـرى، وأخـبرتهم، أن الطبـاخ قتـل الـزعيم ومسـاعده وهـا هـو المسـدس تركـه عـلى الأرض، ولكـن تعجبـوا لمـا لـم يقتلهـا هي أيضـا، وأجابـت أنهـا كانـت في الحمـام لحظـة حـدوث ذلـك بعـدها خرجـت مسرعة ووجـدت المسـدس في الأرض وليلى كذلك.

وفي تلـك اللحظـات خـرج جـابر مـن القصر- مسـتغلا معرفتـه بالقصر- مـن خـلال أحـد الأبـواب الـتي تـؤدي إلى الغابـة وقابلـه أحـد الحـارس في الخـارج وسـأله إلى أيـن ذاهـب وأخـبره أنـه ذاهـب للبحـث عـن عشـبة مـن أجـل أن يستعملها في الطهي، وكان الحارس آنذاك لم يصله الخبر.

***

وابتعد جابر مسافة بينه وبين الحارس حتى يسمع الحارس في جهاز الراديو أن الطباخ "جاروسو" قتل الزعيم ولاذ بالفرار ومن يجده يقتله فورا، وفي تلك اللحظة استوعب الحارس ما الذي سمعه وكان الطباخ لا يزال في زاوية رؤيته، ثم أطلق النار وهناك يجري جابر والآخر يلحق به حتى أصابه في رئته وفي رجله، ولكن كان جابراً قد ابتعد عنه.

وفي تلك اللحظة اتصل الحارس بباقي الحراس وطوقوا المنطقة وبدأوا يبحثون عنه في الغابة، وكان جابر بين الحياة والموت يريد أن يصل إلى منزل ذلك الراعي الذي عالجه آنذاك ويخبره بالحقيقة، وكان يتمايل ويسقط ثم ينهض حتى وصل إلى النهر تذكر آنذاك القارب.

ولكن هذه المرة لا يوجد قارب، فكر جابر وألقى جسده على النهر كان التيار قويا، وجرفه معه وفي تلك اللحظة ينظر إلى السماء، ويرى صورة زوجته وابنته ربا، ابتسم وقال:

- يبدو أنني في لحظاتي الأخيرة، أرجو أن تسامحني ابنتي "مها" عن كل شيء كما أرجو أن تحقق أحلامها.

***

وفي تلك اللحظة كانت تلك آخر كلمات جابر، وفي الجهة المقابلة كانت أنطوانيت في حيرة من أمرها ما الذي ستفعله، ثم استغلت الحالة التي كان فيها القصر- ولبست معطفها وكان الجو ممطرا والرياح قوية، مما ساعد جابر على الهرب وكانت الأجواء ليلاً .

وهي أيضا أرادت الهرب وهربت من القصر- بعد أن تحقق مرادها ولكن أخذت معها ليلى واستقلت أحد السيارات الأجرى، وركبتها وبينما هي جالسة في المقعد الخلفي للسيارة أدخلت إحدى يديها لتخرج القفازات، فجأة تلاحظ شيئ وكانت ورقة استخرجتها وبدأت في قراءتها وكان مكتوباً عليها:

إلى أنطوانت

يسعدني أن أتعرف عليك في هذه المدة الزمنية القصيرة كما يسعدني أنها كانت آخر أيام حياتي معك، أنا الطباخ "جاروسو" أو "جابر" أكتب لك هذه الكلمات الأخيرة وأخبرك عن سؤالك الذي سألتني عليه ذات يوم، في الحقيقة أنا مثلك تعرضت للأذى من قبل ذلك الوحش والذي قتل ابنتي وزوجتي دون رحمة.

كما قتل من قبل صديق عمري ورفيق عملي ودربي "أدهم"، وذلك كله من أجل مجوهرات وجدتها بالصدفة، وحاولت أن أرجعها له، لكن شاءت الأقدار عكس ذلك، قد تتعجبِ وأنتِ الآن تقرأين هذه الكلمات بين السطور وكيف لشخص قُتِل ورمي بجثته أن يعود إلى الحياة، كل ما في الأمر يا "أنطوانت" كان هذا تدبيراً مني وخطة وضعتها لكي أصل إلى هدفي.

ذات يوم خطفت حارسا دون أن ينتبه لغيابه "إل كابو"، وخطفت عائلته أيضا، في الحقيقة لم يروا مني إلا حسن المعاملة، ولكن توجب ذلك، هددته بعائلته ورضخ لي في نهاية المطاف، وساعدني على ذلك طبيب جراح يجيد تغير ملامح الناس، نعم لقد وضعت نسخة من وجهي في ذلك الحارس ليبدو الأمر كما لو أنهم قتلوني.

وفي الحقيقة لم يقتلوا إلا حارسا لهم كما كان يستحق ذلك، لأنه قتل العديد من الأبرياء، آه قد تتساءلين كيف تعلمت الطبخ واللغة الإيطالية بكل بساطة خططت كذلك للأمر، وسافرت إلى إيطاليا وتعلمت هناك اللغة والطبخ كان ذلك لمدة سنة كاملة، اجتهدت فيها قدر المستطاع، وغيرت ملامحي ونبرة صوتي ليستوي الأمر.

***

وفي الأخير كنت ألاحظ إعاجبك بشخصية الطباخ ولكن لا أستطيع أن أتبادل معك آنذاك تلك المشاعر، وفي الحقيقة حتى أنا أعجبت بك، ليس لجمالك إنما لجرأتك وأخلاقك، خصوصا اقحمت نفسك ضد أخطر العصابات ولم تبالي وهذا ما شجعني أكثر عندما عرفت حقيقتك.

لذا أتمنى أن تعتني بليلى لأنني لا أريد أن أقتل شخصا بريئا فذلك ليس من شيمي، كما لدي بنتاً ولا أريد أن أراها ذات يوم ميتة هي الأخرى، لذا حاولي قدر المستطاع أن تعتني بليلى فهي لا ذنب لها بأفعال والدها، مع السلامة عامل نظافة.

وبعد أن أكملت قراءة الرسالة حتى ابتلت الورقة بدموعها حزنا على جابر، وأخيرا عرفت قصته المحزنة التي كان يخفيها داخل أعماقه.

***